S U S A N
علي صادق
سوزان
رواية
سطور

سوزان

علي صادق

SUZAN

Ali Sadek

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
ص. ب 74090
الرمز البريدي 12114
email: bal - alame@yahoo. com هاتف: 07711002790 - 07700492576

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف علي صادق، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry
Revised copyright © Dar Sotour And Ali Sadek ،The right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright ،Designs and Patents Act 1988.

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، أو محررها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 417 - 6

علي صادق

سوزان

رواية

علي صادق

سوزان

الإهداء

إلى الصديقين

مهند نجم العقابي، رياض كاظم

وإلى روح أبي

الفصل الاول

(1)

صباحاً، حين فصَلتْه عن كيبل الشحن، لم يكن جوالها (الآي فون)، قد أعاد شحن البطارية بشكل كامل. لكنها انتبهت بعد ذلك، أنها نسيتْ أصلا، تشغيل زر الكهرباء الموصول بالشاحن. على غير العادة لم يكن ذلك مهما لها، كان الأهم أنها لاتدري سببا يجعلها تشعر أو متأكدة تقريبا، أن شيئا ما سيحدث هذا الصباح.

ورغم أنّها تفشل في أغلب الأحيان عندما تتنبأ بأشياء ستقع في حياتها، لكنها لاتكفّ أبدا عن إعادة المحاولة ولوعلى مستوى أشياء بسيطة ليس مهما حدوثها من عدمه، كما أنها تحتفظ بأوراق صغيرة دونت فيها أحداثا سابقة، نجحتْ في توقع حصولها.

مرةً توقعت أن تخسر البرازيل أمام المانيا بسبعة اهداف، وقتها سخر الجميع من ذلك لكنه حصل بالفعل في نهائيات كأس العالم 2014، ومرةً أخرى في ليلة رأس السنة وهي تشاهد خبيرة الأبراج (كارمن شمسي) تقول: إن هذه السنة ستشهد رحيل نجم كبير من

نجوم السينما العربية. لاتدري في تلك اللحظة كيف نطقت دون قصدٍ اسم (نور الشريف)، وقد حصل ذلك في اغسطس من عام 2015.

تهمس لنفسها دائماً إن في توقع حصول شيءما وانتظارحصوله بالفعل، متعة خاصة. وهذا فقط ما يدفعها لئن تكون مهتمة بذلك. الأمرلايعدو كونه تسلية ومتعة لمليء الفراغ حسب.

ولاتخفي سوزان إعجابها بالمشاهير من العرافين الذين تتابع أخبارهم عبر مواقع الانترنت، خصوصا العرافة البلغارية (فانغا) التي كان يقصدها كبار الفنانين والسياسيين لمدة طويلة، وكُتب عنها الكثير في الصحف والكتب وتحدث الجميع عن قواها الخارقة.

تتذكر من خلال متابعتها لأخبار (فانغا)، انه عند وفاتها أعُلنت العديد من التنبؤات التي قيل بأنها تعود لها، والتي شملت أحداث الفترة الزمنية بين 2008 وسنة 5079م. ويقال أن هذه العرافة البلغارية التي كانت قد فقدت بصرها في فترة طفولتها في الثمانينات من القرن الماضي بأنها قالت:

ـ إن المصائب ستنهمر على كل مكان في العالم وستمس كل الشعوب، وأن الناس سيمضون حفاة عراة بدون ملجئ ولا غذاء ولا ضوء، وأن كل ما كان مجتمعا سيتفرق إلى قطع، وسيقع ذلك في مكان ليس ببعيد عن روسيا.

تحاول سوزان مراراً أن تقاوم إحساساً يعتريها بشكل مفاجيء،

يخبرها انها تقوم بما تقوم به العرافات لأنها تخاف من المستقبل، وأن الأمر لاعلاقة له أبدا بالمتعة.

ـ أيُ مستقبلٍ يمكن أن أخاف منه!!!.

قالت مُحتجة، ثم قربتْ وجهها من المرآة:

ـ أهذا حقا وجه امرأة!!! إنه يشبه مدينة دمرها القصف.

ـ ماذا تنتظر من المستقبل امرأة أكملت التاسعة والثلاثين. إن كل ما املكه انني قرأت كتبا كثيرة. روايات، فلسفة، سياسية، شعر، ابراج.

ـ نعم، كل ما أملكه حقا، هو اني أتامل كثيرا. أتأمل في احوال الناس، في الكون، في مواقف تحصل في حياتي لاتفسير لها.

ـ أنتِ مختلفة. كثيرون يقولون لي ذلك. ولكن بمَ اختلف!! يقولون إنّي طيبة ومسالمة ولم أُؤذِ احدا في حياتي. هكذا هم الناس، يجرحونك طوال وجودهم في حياتك ثم يتذكرون فجأة انك كنت طيبا ومسالما ولم تؤذِ احدا. مجرد كلمات يُلقونها إليك ثم يمضون. لامانع لديهم أن يقولونها لكل احد.

ـ أتذكر خلال دراستي في الجامعة، طالبة كانت سيئة الطبع، عديمة الإحساس، تحتقر الناس جميعا. أتذكر أنها أهانت طالبة أخرى أمامنا، مسحت بكرامتها الإرض. كان والد تلك الطالبة القاسية مسؤولا كبيرا في الدولة خصص لها سيارة حديثة واثنان من الرجال الأقوياء يمشون خلفها، وكانت ترتدي ملابس غالية وتضع عطورا بماركات عالمية، مع ذلك كانت رائحة فمها كريهة جدا.

ـ كنّا وقتها خمسة بنات نجلس في نادي الكلية. قامت ابنة المسؤول وبلا سبب بالسخرية من ملابس هذه البنت وطريقة كلامها وجعلت الجميع يضحكون عليها. تصببت البنت عرقا، أغمضت عينيها وفتحتهما مرات عديدة، غطت وجهها بيديها، لكن ابنة المسؤول واصلت إهانتها وتحقيرها، إلى درجة ان البنت المهانة تركت الجامعة إثرهذا الموقف ولم نرها أبدا بعد ذلك اليوم.

ـ أنا متأكدة أن تلك القاسية لم تتذكريوما انها جرحت انسانة بكل هذا العنف، فالقساة أضعف الناس ذاكرة. وحدهم المجروحون مصابون بلعنة الماضي. إن جراحهم منحوتة كتماثيل نفيسة، تنتصب في اماكن حصينة من أرواحهم.

يقولون إني مختلفة، بمَ اختلف؟؟ بحزني! بخيباتي المتكررة!!! بأقتراب الاربعين مني!!!

هل ثمة رجل يفكر بالإرتباط بامراة لمجرد أنها تقرأ، لمجرد أنها تجلس وحيدة تتأمل. من يرضى أن يتبادل قُبلاً ساخنة مع رواية أو يمارس الجنس مع مكتبة. كل الرجال الذين يتحدثون عن جمال الروح في النهار، يحلمون في المساء بنساء ذوات عيون ملونه وغمازات صناعيه واجساد ملساء.

رغم كل الأسباب التي ذكرتها سوزان، إلّا أنها لم تبدو مقنعة لإحساسها. بقي الصوت يعلو:

ـ أنتِ تخافين من المستقبل.

***

حلَّ الشتاء سريعا هذا العام. وإذ لم تكن الشمس قد أشرقت تماما هذا الصباح، فقد بدا الجو باردا، إضافة إلى أن أرضية الغرفة لم تفرش بعد. عندها أحست سوزان برعشة خفيفة تسري في جسدها. كانت ترتدي بلوزا صوفيا أحمرا وبيجامة بيضاء موردة بدببة وقطط وطيور ملونة. فكرت أن ترتدي شيئا إضافيا، لكنها تذكرت شيئا بدا أنه مهمْ.

فتحتْ قفل (الآي فون) ببصمة إبهامها، فكشف ضوءالشاشةعن الصورة التي اختارتها للخلفية. لاتتذكر متى غيرتها من لوحة العشاء الاخيرلدافينشي إلى صورة لنانسي عجرم. لم يبدو ذلك مهما لها أيضا. فكم من الصور تتغير في دواخلنا.

على مدى العمر، لم نعرف خلفية ثابتة للقلب، وتبدو أرواحنا مثل محطات القطار في المدن الكبيرة، تشهد كل لحظة قادمين من سفر او راحلين دون عودة. نحن نشبه رمال الشواطيء، كم من العابرين كتبوا عليها أسماءهم وحكاياتهم، وكم أخذتْهم الامواج بعيدا. ربما لهذا يفضل كثيرون أن يبوحوا بأسرارهم للبحر؟ ربما... وربما لم يكن حديثهم مع البحر بوحاً، هم فقط كانوا ينادون على بقاياهم المدفونة فيه.

بفستانها الأحمرالمكشوف الكتفين، بدت نانسي في خلفية الشاشة، مبتسمة، تُلّوحُ لمعجبين قريبين.

تفقدتْ سجل المكالمات والرسائل، فلم تجد شيئا جديدا. ثمة أمر يصعب تفسيره يحدث في حياتها. في البداية تصورت أنه

أمر عادي. وهو على أية حال يمكن أن يحدث لغيرها، ولاينبغي الخوف أو المبالغة في كونه يحدث لها فقط.

لكن هذا الأمر مع مرور الوقت صار غامضا. لم يعد أمرا طبيعيا أبدا، واستغربت من صبرها واعتيادها عليه. ذلك أن جوالها منذ مدة ليست بالقصيرة، يخلو من أية إشعارات بوجود مكالمات أو رسائل. لاوجود لأحدٍ يتصل بها أو يبعث لها رسالة. لقد انقطع الاتصال بها مع كل الذين تعرفهم. رفيقات طفولتها، صديقاتها أيام الكلية، أصدقاءها على الفيس بوك، أقرباءها جميعا. حتى في أيام المناسبات والأعياد التي يتبادل الجميع فيها عادة الرسائل الجاهزة والبطاقات والتهاني، لم يكن أحد يتذكرها بكلمة. قالت ربما لاوقت لديهم، فالحياة هذه الأيام لاتعطي فرصة للإنسان أن يسأل حتى عن نفسه، ولعل لكل واحد منهم ظرفه الخاص. قررت أن تقوم هي بالاتصال بهم.

بدأت بأصحاب الأرقام المثبتين في قائمة التفضيل على جوالها، وعندما فعلت ذلك زادت الامور سوءا. لا أحد كان يرد، لاأحد يجيب على عشرات الرسائل التي بعثتها. جربت أكثر من مرة وأعادت الاتصال بنفس الأشخاص وفي أوقات مختلفة لكن دون جدوى. ماجعل الامور تتفاقم أن وسائل التواصل الاخرى، كانت تؤكد انهم متصلين بالشبكة فعلا، فقد كانت علامة (متصل الآن) على الفايبر والواتساب تظهر لها في أعلى صفحة كل واحد تكتب إليه أو ترسل له ملصقا.

رسالة واحدة فقط كانت تأتيها في فترات متباعدة من رقم مجهول ليس مثبتا عندها في قائمة جهات الاتصال. الغريب ان هذه الرسالة تأتي في أوقات غير متوقعة، تصل نفسها في كل مرة ولايغير المرسل فيها حرفا واحدا، كأنه يحتفظ بها في سجل مسودات الرسائل على هاتفه، وعندما يقرر إرسالها يضغط على علامة الإرسال فقط. حتى النقاط الثلاثة المتباعدة المكتوبة في نهاية الرسالة، لم يكن ينسى المرسل المجهول وضعها كما في كل مرة. كانت تصلها دوما على الشكل التالي: (سوزان قريبا سينتهي كل شيء...)

***

دخلتْ إلى حسابها الشخصي على الفيس بوك، ثمة إشعارات ظهرت في آخر الأخبار على صفحتها، لم تجد رغبة بمعرفة تفاصيلها، ولاعرفت ممن جاء طلب الصداقة الوحيد في خانة طلبات الإضافة الجديدة.

قبل أن تختار تعطيل الحساب، تمهلت قليلا في إكمال الإجراء. رفعت إصبعها عن خيار التعطيل وعادت لتدخل إلى سجل الدردشة. تجاهلت محادثات قديمة ظهرن لها تباعا، حتى وصلت إلى محادثة فتحتها في نافذة خاصة. كانت آخر الكلمات في هذه المحادثة:

ـ ليش خليتيني اتعلق بيج!!!

ضغطت أعلى النافذة حيث اسم الشخص (فائق الكتلوني)

فقادها ذلك للدخول إلى صفحته. تأملت في صورته الشخصية فظهرتْ صورة شابٍ وسيم عشريني أشقر بعينين عسليتين وشعرٍ طويل نسبيا، يرتدي سترة بنية داكنة تحتها بلوز سمائي اللون، بفتحة في أعلاه لمعت منها سلسلة ذهبية كانت على رقبته.

تعرفتْ سوزان على هذا الشاب من خلال صفحة وهمية بإسمٍ آخر. مساء ذلك اليوم أنشأت حسابا جديدا بإسم (شهقة كاردينيا) واختارت صديقتها أيام الكلية (مها الحلوة) لتجعل صورتها صورة شخصية للصفحة. بدأ هذا الشاب حديثا عابرا معها، ثم تطور الأمر إلى اهتمام وغزل وملصقات على شكل شفاه حمراء ترسل قبلات ساخنة، ودميتين عاشقتين في حالة عناق حميم، وقلوب حب وتبادل أشعار وروابط أغاني.

كان الشاب بسيطا جدا لايمت للعالم الذي تنتمي له سوزان بأية صلة. فهو لم يقرأ كتابا واحدا في حياته. يشجع برشلونة بجنون ولايمل من الحديث عن ليونيل ميسي الذي يسميه (ابو تياغو). قال لها مرة، انه يحبها بجنون لكنّه يمكن أن يهجرها بلحظة، يمكن أن يدوس على قلبه وينساها بسهولة. قال إن ذلك يمكن ان يحصل بحالة واحدة، هي ان تكون مشجعة للريال أو معجبة بكرستيانو رونالدو.

ويقضي فائق الكتلوني أغلب وقته في مول المنصور حيث يعمل هناك في محل لبيع التجهيزات الرياضية. يحدثها ان نساء

فاتنات يأتين الى المول ويحاولن الايقاع به بنظراتهن لكنه يؤكد ان من المستحيل ان يفكر بأمراة اخرى غيرها. قال انه لم يعرف إمرأة بحنانها وهو يتوق الى اللحظة التي يلتقيان فيها ليشرح لها حبه بطريقة أفضل ويغني لعينيها أحلى أغنيات محمد السالم الذي يقول عنه:

ـ يسوه راس أم كلثوم.

أحستْ سوزان وهي تقرأ هذه المحادثة الطويلة مع هذا الشاب بأنها ارتكبت خطيئة عظيمة:

ـ كيف سمحت لنفسي أن افعل كل هذا!!!. لقد وجهتُ إهانة قاسية لكل الشعراء والروائيين والفلاسفة الذين قرأت لهم. لقد وجهتُ إهانة لذكرى احمد.

عندما ذكرت أسم (احمد)، لمعت في عينيها دمعة طاعنة في الحزن. حاولت حبسها، قاومتْ ذلك بصعوبة لأنها لاتملك خبرة اولئك الذين يُجهضون بكاءهم. خذلتْ دمعها لأول مرة في حياتها. قالت:

ـ أن تخون ذكرياتك فهذا يعني انك لم تعد جديرا بالبكاء لأجلها، لم تعد تستحق تلك النغزة التي تضرب القلب حين تعبرعليه مصادفة، الحروف الاولى لاسم من تحب، لم تعد صالحا للألم الذي يثيره المكان، العطر، ألأغنية الأولى.

حدث ذلك في السنة الاخيرة لها في كلية الاداب. في يوم صيفي

لاهب، تجمّع الطلاب في المكان المخصص لوقوف الحافلة التي تقلهم الى بيوتهم. لكن وعلى غير العادة تأخرت الحافلة عن موعدها. حضرت كل الحافلات وانطلقت منذ وقت مبكر إلا الحافلة التي تمر على بيت سوزان. مااضطر الطلاب ان ينتظروا طويلا تحت الشمس. كانوا يتحدثون بأصوات عالية وهم يشكلون حلقات كبيرة وصغيرة أو يقفون منفردين، بينما وقفت سوزان وحيدة مبتعدة عن الجموع تحت مظلة هجرها رجال المرور ولاذوا من حرارة الشمس بمحل لبيع الفلافل.

قال(ليث المتشائم) وهو طالب في قسم اللغة العربية، معروف بين زملائه بيأسهِ من الحياة وعدم جدواها:

ـ ماراح يجي السايق ابد، وراح نبقى هنا للصبح.

في البداية ضحك الجميع من كلامه، وحين طال انتظارهم، غادر كثيرون مستقلين سيارات أجرة خاصة بينما راح عدد منهم بأتجاه كراج باب المعظم واحتارت سوزان كيف تتصرف بغياب (مها الحلوه) صديقتها الوحيدة التي صادف انها لم تأتي الى الدوام في هذا اليوم. وقفت حائرة فلم يصادف أبدا ان ترجع الى البيت وحدها. مر الوقت وهي واقفة في مكانها وأحستْ ان صداعا يفتك برأسها ولم تتذكر سوى انها حاولت أن تتكأ على شيء ما يحفظ توازنها.

حين تناهى إلى سمعها أصوات تختلط ببعضها لأشخاص

عابرين لاتعرفهم يتحدثون عنها، عرفت انها سقطت على الارض ودخلت في غيبوبة مفاجئة، ولم تعرف كم من مر من الوقت وهي على هذا الحال. فتحت عينيها بصعوبة فأبصرت وجوها كثيرة تحدق بها لكن وجهه كان الأقرب أو هكذا احست. ورغم انها لم تخرج من حالة الدوار بشكل كامل، رغم صخب منبهات السيارات وأصوات المارة، إلا انها لم تسمع سوى صوته:

ـ سلامتج.

لم يزدْ على ذلك حرفا. أحست سوزان انه قال كل شيء.

رش على وجهها قليلا من الماء لكنه اشعل في قلبها حرائق كثيرة. ومنذ ذلك الوقت كانت حكايتهما سفرا بين الماء والنار.

منذ ذلك الوقت، عشقت غيبوبتها وتمنت لو تصيبها كل لحظة إغماءة مفاجئة. مفارقةحقا أن تمضي عمرا وانت تمشي بوعيك ولايصادفك سوى الحزن، وربما تقودك إغماءة مفاجئة الى فرح لانهائي. هكذا هي الحياة.

شغل تفكيرها لِما تبقى من اليوم. إستعادت وجهه، نبرة صوته، توقعت له اسماءا عديدة، وضحكت حين تذكرت انه نسخة طبق الاصل من الممثل العالمي ليوناردو دي كابريو. سألت نفسها:

ـ لماذا أُحمل الامور فوق ماتحتمل. لقد فعل معي موقفا إنسانياً يمكن ان يفعله مع أي عابر أو عابرة يمرون بنفس الوضع الذي كنت فيه.

صباح اليوم التالي جاءها الجواب. شاهدته من بعيد وهو يبحث عنها في أروقة الأقسام ويسأل زميلاتها عن طالبة حصلت لها يوم أمس حادثة إغماء. قبله لم يبحث عنها احد. لذلك حاولت جاهدة ان تخفي فرحها حين جاءت به احدى زميلاتها اليها. هذه المرة ايضا قال لها:

ـ سلامتج.

ومادام الكون قد بدأ بكلمة، فأن الحب يمكن ان يبدأ بكلمة ايضا.

لم تكن لها حياة قبله، كان هو بيان ولادتها. قبله كانت امرأةَ فقط، فصارت إمرأةَ وأغنية، إمرأةَ وقارورة عطر، إمرأة وحكاية. لقد بارعا ان يضيف الى سماء انوثتها في كل مرة، نجمة جديدة.

وبعد عام من المشي على الورد والجمر، غاب احمد. مرت ثلاثة ايام دون ان يتصل بها. حاولت هي الاتصال به دون جدوى. ساورها قلق عميق، فماكانت تعرف له عنوانا سوى انه أخبرها ان بيته في منطقة الشعب، وانه وحيد امه بعد وفاة أبيه، وانه صاحب أسواق في نفس المنطقة (الشعب)

(أحمد) كان مثلها ليس له اصدقاء لتسألهم عنه، أما المقربون منها، فليس لهم علم أصلا انها تعيش قصة حب معه.

مرَّ اسبوع. قتلتها هواجس غامضة، صارت شاحبة هزيلة، مثل شجرة منسية.

لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر، قررت ان تذهب الى منطقة الشعب، تسأل عن مكان الاسواق. تتذكر انه قال ان اسمها (اسواق النورس) استقلت سيارة اجرة لاول مرة في حياتها. قال لها السائق انه لايعرف مكان الاسواق بالضبط لكنه لن يتركها دون ان يوصلها الى العنوان.

في الطريق نغزها قلبها فخافت من أشياء سيئة يمكن ان تحدث وتمنّت في سرها ان تتيه طوال اليوم ولا تصل ابدا.

عندما اجتازت السيارة نقطة التفتيش الرئيسة في منطقة الشعب، توقف السائق ليسأل احد المارة وكان رجلا حاد الملامح، لاينظر اليك عندما يُحدثكْ. ويبدو انهما كانا قريبين جدا من المكان. اذ سرعان ما ارشد ذلك الرجل السائق إلى مكان اسواق النورس دون ان ينظر اليهما.

حين توقفت سيارة الأجرة عند باب الاسواق، كاد يغمى على سوزان من أثر الصدمة. بقيت ساكنة بلا حراك، تنظر بعينين مرعوبتين الى اللافتة السوداء على زجاج الواجهة الامامية. تحدث إليها السائق مرارًا فلم ترد. قال لها هذه هي الاسواق. نزلت من السيارة دون ان تقول له كلمة واحدة. سارت تجر قدميها جرا. وقف يراقبها الرجل الحاد الملامح. اقترب منها وهو ينظر الى الجهة المعاكسة للشارع. قال ان سيارة احمد سقطت من جسر الجادرية بعد ان انفجر إطارها الامامي. في البداية لم يعثروا على احمد لكنه ظهر جثة منتفخة في مكان ما من النهر.

بعد سنوات طويلة على ذلك، لاتدري سوزان لماذا نكأت جرحا قديما. كم كانت مخطئة حين تصورت انه اندمل وصار ذكرى.

رغم ذلك مازال إحساسها يخبرها أن امرا غير متوقع سيحدث قريبا. هذه المره لم تكن خائفة. بل صارت متأكدة من حصوله. حاولت فقط ان تعثر على اشارة تساعدها أن تعرف اكثر. كررت المحاولة إلا انها لم تكن تسمع سوى أصوات بعيدة كانت تتلاشى قبل ان تصل. أدركت سوزان ان الوقت لم يحن بعد. فالنبؤات مثل الولادة والموت، تخضع في حدوثها إلى مواعيد صارمة.

الفصل الثاني

(1)

تغيرت في سوزان أشياء كثيرة بعد ان صارت قريبة من الأربعين. صارت حادة المزاج، عصبية، متناقضة، تتخذ قرارات مفاجأة ثم تتراجع عنها، والحساب الذي عطلته للتوعلى الفيس بوك، كان هو الرابع الذي تقوم بحذفه خلال شهر. فبعد تخرجها قبل سنوات من كلية الاداب قسم اللغة العربية لم تجد شيئا تفعله سوى الجلوس في البيت والانشغال بمواقع التواصل الاجتماعي، بعد ان باءت بالفشل كل محاولاتها بالعثور على فرصة عمل.

حاول ابوها (صبر) بكل الوسائل ان يساعدها على ايجاد وظيفة حكومية. لم يكن يملك علاقات مع اشخاص نافذين في الدولة، لكنه حاول قدر مايستطيع مستغلا مهنته كسائق تكسي يقضي نهارا كاملا في التجوال في شوارع بغداد ويلتقي بكل اصناف المجتمع. وكان يبرر عدم اتمام الامر بأن وضع الذين يستقلون سيارات الاجرة لم يعد كما كان قبل عام 2003 لان اغلب الذين لهم علاقة بملف

التعيينات لايستقلون الان سيارات الاجرة، بل تسير بهم مواكب طويلة لسيارات فارهة ولايرون الناس الا من وراء الزجاج المظلل الذي عادة يظهر الشخص ملونا واصغر من حجمه الطبيعي.

(2)

أكثر شيء كانت تكرهه سوزان هو اسمها. لطالما شعرت انها لاتكون هي، عندما ينادي عليها احد به، إنه اسم لامرأة اخرى عابرة، وربما تأتي يوما فتسترده، وتتركها بلا اسم. هكذا حدثت نفسها.

ولم يشفع للأسم ماعثرت عليه في كتب المعاجم ومعاني الأسماء، بل زاد في تعاستها ان اصوله ليست معروفة بالضبط. يقول البعض انه فارسي ويعني الإبرة، او المُحرقة وقيل المحترقة. ويقول أخرون، ان اصوله عبرية قديمة. لكن ابوها(صبر) يصر ان معناه ليس مهما، المهم انه سماها على اسم سوزان الصابئية، يقول صبر عنها:

ـ جانت تشبه نادية لطفي.

بدأ صبر حياته شيوعيا. إعتنق أفكار ماركس منذ صباه ودافع عنها ردحا طويلا من الزمن ثم تركها فجاة وتبرأمنها. ذات يوم بعيد قام بأحراق بيانات ومنشورات يحتفظ بها، مزق روايات كثيرة كتبها شيوعيون، ثم جلس يبكي. أثارالتغيير المفاجيء الذي طرأ عليه، حفيظة جميع رفاقه القدامى الذين قاطعوه واعتبروه خائنا، تخلى عن الحلم الذي تعاهدوا ذات يوم انهم سيموتوا دون ان يفرطوا به.

ولم يعلن صبر لأحد عن أسباب هذه الانعطافة الصادمة. إكتفى بعزلة طويلة. لكن شائعات سرت بين مقربين منه، انه عاش تجربة حب فاشلة. تغير صبركثيرا وصار إنساناً أخر لايشبه ابدا الانسان الذي عرفوه مناضلا عتيدا نجا عدة مرات من موت محقق بسبب أفكاره اليسارية. لم يبقى من صبر القديم سوى انه مازال يقرأ بنهم، إذ من النادر ان يراه الناس ويديه خاليتين من كتاب او صحيفة، وهو يُذّكر سوزان دائما، انها ورثت منه اشياء كثيرة، يقول ساخرا:

ـ حتى من اموت متكولين ابوي ماعافلي شي، عفتلج كل الاشياء الي تجيب الفكر، القرايه والعيون الزرك.

صبر، قصير القامة اسمر، عيونه صغيره وانفه طويل، يقول ان الزمن جرده من كل شيء واستكثر عليه حتى شعره، فتركه أصلعا.

يقول لسوزان انها لو كانت تشبه امها فضيله لتغيرت حياتها نحو الافضل. كانت فضيله بيضاء البشرة بعينين واسعتين ووجه مدور، على خدها الايمن شامة مميزة وبين حاجبيها وشم على شكل نقطة زرقاء لم تغير السنين زرقتها الاصلية. رغم ان الزمن غير كثيرا من فضيله التي ازاداد وزنها وصارت تشكو مؤخرا من امراض كثيرة، يؤكد صبر دوما انها لاتشكو من شيء، هي فقط تتوهم ذلك.

ليس لفضيله علاقة بالقراءه والتأمل، فهي إمرأة بسيطة لاتقرأ ولاتكتب تزوجها صبر تنفيذا لوصية خاله. انجبت فضيله ثلاثة اولاد

وبنت، ماتوا جميعا بأستثناء سوزان. توفي الاول في الشهر الثامن من الحمل والثاني بعد ولادته بساعة، أما الثالث فتوفي وعمره شهران وتسبب موته لفضيله بجرح عميق. تقول انها أسمته (محمد) وكان يشبهها تماما وقد لمحت في عينيه الصغيرتين نظرة حنان لم تنساها طيلة هذه السنين. لكن قلبها كان يخبرها ألا تفرح كثيرا، يحذرها من حزن قادم. وعندما مات (محمد)بلا سبب عصر أحد الأيام، عرفت فضيله ان قلبها كان على حق وان طفلها كان يودعها بتلك النظرات. ومنذ ذلك اليوم وثقت فضيله بكل مايخبرها به قلبها.

تُحب سوزان فكرة أن يكون لها اخوة ثلاثة، ورغم انها لم ترهم أبدا، لكنها تعتقد أن أمورا كثيرة في حياتها ستتغير لو كانوا يعيشون معها الآن. تفكر أحيانا، إن هذه الحياة تشبه لعبة المكعبات، عندما تبني منها بيتا صغيرا، ثم تقوم بسحب مكعبةٍ واحدة سينهار البيت الذي تعبت في بناءه. أما لو اضفت واحدة اخرى فإنك سترى شكلا جديدا مختلفا. في النهاية، نحن مجرد مكعبات وهناك قدر غامض يختار لنا المكان المناسب في هذا البيت الصغير أو يرمينا بعيدا حين نصبح غير صالحين لأداء دور ما إلى جانب رفاقنا المكعبات.

تصغرفضيلة صبر بأربع سنوات وتعتبره حبيب العمر وتراه أجمل الرجال في العالم، وتقول أمام النساء، إنه أحلى من (سعدون جابر)، فتضحك سوزان من قولها وترد:

ـ هو هذا أحلى واحد عندج!!!!عبالي أحلى من (برادلي بيت).

تطيع فضيلة صبر، طاعة عمياء وتحرص على تنفيذ رغباته، رغم اعتراضها الشديد على اهتمامه بالكتب وترى انه أضاع عمره في شيء لاينفع، ولو استغل هذه السنوات وعمل بقالا في السوق لكان وضعهم الآن أفضل بكثير. ولاتأبه فضيلة كثيرا بحكاية أن يكون لصبر حبيبة في زمن غابر لاتعرف شيئا عنها، فهي تنظر إلى المسألة من زواية أن المتبقي من العمر أقل من الذي مضى. لكنها مع ذلك تعلق أحيانا:

ـ أدري بيك تموت ع النسوان بس محد تريدك.

وحدها سوزان مهتمة بتجربة الحب التي عاشها ابوها قديما. تُلح عليه، تتقن توجيه أسئلتها، فيتقن هو في الرد إجاباتٍ غامضة. هو في الحقيقة يحب ان يُبقي لنفسه سرا لايعرفه أحد. أما سوزان فتحب تلك الدمعة التي تلمع في عينيه كلما تذكرها، تحب تلك البحة الجنوبية وهو يطلق صوتا مجروحا بأبيات من شعرالأبوذية، تحب سوزان أن تسمع حزنها بصوت آخر، فكلاهما يخفيان عن الناس جراحا غائرة. هذه المره إختار(صبر) أبياتا ليونس العبودي:

يدنيا من الجفن شكلين هد ماي

(يادنيا، لقد بكت عيني اشكالا مختلفة من الدموع)

اخذتي الحيل مني وبعد هد ماي

(لقد هدمت الدنيا قوتي ومازالت مستمرة في الهدم)

يمن كتلي اعجزت من شيل هد ماي

(اذا كنت عجزت عن حمل عباءتك)

انه لحد السدر ماشيل اديه

(انا لفرط ضعفي لا تصل يدي الى صدري)

نثر صبر بصوته، مايشبه الحداد، يصمت ثم يواصل، وكأنه ينادي على مسافر يبتعد، لايراه أحد سواه، ثم يختم بنبرة يائسة:

ـ مشينا مشينا، انهدونّا احبابي مشينا.

إقتنعت سوزان أن تعود خائبة، واكتفتْ بسؤال نفسها:

ألعيون التي تقاتل بضراوة دفاعاً عن سرٍ قديم، هل يمكنها أن تخون يوما، هل تنسى، هل ستسمح أن يسكنها آخرون بدلا عنًّا. ولم تعرف سوزان انها ستحتاج إلى إعادة هذه الاسئلة كثيرا في سنوات قادمة.

(3)

أن يكون إسمها سوزان، فهذا كافٍ لتتشائم، كافٍ لتوقع مصير مجهول ينتظرها. هكذا كانت تعتقد. كل السوزانات اللواتي تعرفهن، إختفين، او لعبت بهن الدنيا. سوزان مبارك كانت سيدة مصر الأولى، إمتلكت القصور والمجوهرات، ونافست الممثلات وعارضات الأزياء في تصدر صورتها على أغلفة المجلات الفنية،

وقيل ان ثروتها بلغت اربعين مليار دولار. بلحظةٍ واحدة، ضاع منها كل شيء، أصبحت زوجة رجل سجين، وثِق بالتوريث والأيام، فانتهى فلماً وثائقيا على الجزيرة.

(سوزان عطية) شغلت الناس بصوتها، وردد العشاق أغنياتها لسنوات، إختفت فجأة وطوى حكايتها الزمن، مثلما طوت هي حكايتها، عندما غنت (صعبان عليه اطوي الحكايه)

بعد ذلك تذكرت سوزان تميم، كيف تنسى انها لم تنمْ تلك الليلة، حين رأت صورتها على أحد مواقع النت مذبوحة في شقتها، كيف تنسى انها حلمت بها في الليلة التالية، رأتها عجوز هَرِمة شعرها أبيض مُجعد، تمشي في ممر طويل مُضاء بمصباح صغير في نهايته. فيما أصوات مبحوحة غامضة بقي يتردد صداها في الممر، أغلب الظن انها كانت تأتي من الغرف الكثيرة الموزعة على الجانبين، وربما كانت لأناسٍ يُعَذبون، ويحذرونها من الإقتراب من نهاية الممر. وإذ بقيت تواصل سيرها، بقيت الأصوات الغامضة تواصل صراخها بنبرة لاتحتمل. فزّت مرعوبة فأحست في أذنيها طنيناً، لم يتلاشى إلّا بعد ساعة من صباح ذلك اليوم.

حتى سوزان الحفّافه جارتهم، لم تكن نجمة ولا زوجة رئيس. كان زوجها (ستار) تزوج عليها من أرملة قُتل زوجها في أيام القتل على الهوية عام 2005.

في شارع حيفا، وسط بغداد، أوقف سيارته (الهونداي) مجموعة من الملثمين، سألوه عن اسمه؟

نبيل

إحتاروا به، فنبيل ليس عبد الامير ولا عمر.

ـ هويتك؟

ـ قرأ احدهم بصوت عال: نبيل محمد سالم.

ضل الاسم محايدا بالنسبة لهم، قالوا له:

ـ هي مال نبيل!!! انت سني لو شيعي؟؟؟

ـ غير اعرف انتو منو حتى اكول.

في حروب الطوائف، لاوقت للمزيد من الاسئلة، ولامكان للأسماء المحايدة. عليك أن تموت أولاً، حتى ينقص عدد الطائفة الأخرى واحدا. بعد سنوات، عندما يتصالح المتقاتلون سيكون موتك، مجرد دليلٍ على أن الحرب الطائفية لارابح فيها.

بقيت سوزان الحفّافة مصدومة من زواج ستار عليها، لاتأكل ولاترمش ولاتنام. ولم يُخفف من صدمتها، محاولات ستار المتكررة لاسترضاءها، ولا مواساة النسوة اللواتي دأبن على تصبيرها. كنّ يتجمعن عصرا، ثم يأتين لزيارتها. ولأنها حفافة ماهرة ومعروفة في المنطقة بأنها افضل من تقوم بعمل الشيره، فإن علاقاتها كانت واسعة وتعرف مالايحصى من النساء. قالت احداهن لها:

ـ همه الزلم كلهم كواويد.

وقالت الاخرى وقد فتحت عيناها مدهوشة: سواها الجلب!!!

واقتربت منها ثالثة، هامسة في اذنها:

ـ دواج يم ملا خليل، بيتهم بحي الامين، يسويلج حرز ويخليه يرجعلج مثل الجلب ويضل يموت عليج.

ورغم ان (ستار) صار كلباً وفق سياقات مختلفة لأحاديثهن، لكنه لم يرجع لسوزان الحفافة أبدا، التي بقيت ممددة على فراشها، ساكنة، لاتتحرك، تشبه جثة محنطة. يدور في بالها فقط، انها كانت غبية ولم تنتبه أن قلب ستار لم يكن لها يوماً. تتذكر انه اخبرها مرةً، انه يحسدها لأن بإمكانها الاقتراب من وجه سماهر الموظفة وتمنى يومها لو أنه كان الخيط الذي يلامس خدها. كم كانت غبية عندما اعتبرت ذلك حديثا عابراً.

مع مرور الأيام صار جسمها هزيلا وعيونها شاحبة، واعتذرت فيما بعد عن إستقبال كل من يأتي لزيارتها. في يوم مباراة العراق وتايلند، سمع الجيران صراخاً من بناتها الأربعه، ركضوا الى البيت، فوجدوها متفحمة في غرفتها، بعد ان صبّت على جسدها صفيحة كبيرة من النفط. تقول إبنتها الصغرى سرى، إن أمها احتضنتها بقوة، والبستها سلسلة ذهبية كانت على رقبتها، ثم مشطت شعرها وقبلتها كثيرا، قبل أن تطلب منها مغادرة الغرفة وإغلاق الباب.

الفصل الثالث

(1)

يبدو (شارع الشيشان) الذي تسكن فيه سوزان مع أبويها، هادئاً على غير عادته، وهو شارع طويل بمنعرجات كثيرة يقع في نهاية حي شعبي بأطراف بغداد، بيوته مشيدة على الطراز القديم ومتباعدة تقريبا، لأنه بالأصل كان ارضاً زراعية لايُعرف مالكها والناس من الأحياء الأخرى تسميه (شارع التجاوز) وهي تسمية معروفة للبغداديين تُطلق على الاراضي التي سُكنت دون موافقة الدولة. بعد ذلك صار لهذا الشارع أسماء كثيرة كلها متداولة ولكل إسم حكايته المتفردة وأبطالها الذين مازالوعلى قيد الحياة يعيشون فيه أو الذين مضوا إلى مصير مجهول وصاروا ذكرى قديمة.

ألأكبر سناً والأقدم سكناً في هذا الشارع هو (عيدان الجبر) وزوجته (شنباره) هما الوحيدان اللذان يعرفان كل شيء عن هذا الشارع ويزودان القادمين الجدد بمعلومات لا أحد يعرفها غيرهما.

يتذكران أول بيت شُيد هنا، يتذكران العراف الهندي الذي كان

يأتي الى هنا بصفة بائع عطور ويخبر الناس عن أحداث وحوداث شخصية كثيرة، تخص الزواج والطلاق والتابعة ومصير الغائبين، وتأخر الانجاب. أخبار سارة وأخرى سيئة تنتظرهم في المستقبل.

لم يكن يتّبع الطرق التقليدية في معرفة الحظ والطالع، فهو لايقرأالفنجان أو الكف. كانت له طريقةخاصة، غريبة ومختلفة، ربما تكون هي السبب في شهرته وإقبال الناس عليه. يقول عيدان، إن الهندي ذو اللحية الطويلة والعينين الواسعتين المكتحلتين، كان يحمل حقيبة قديمة يعلقها بكتفه، ويطوف بها على الأحياء القريبة. يطرق الأبواب صباحا، ثم يعرض عليك عشرات الأنواع من العطور في عُلبٍ زجاجية صغيرة. وعندما يقع إختيارك على عطر معين فأن ذلك سيمثل حظك وطالعك، حيث يشرع الهندي بعملية شرح مطولة لِما تخبأه لك الأيام من مفاجأت في المستقبل. وتتم العملية عادةً عن طريق إشارات باليد وبعض الكلمات العربية التي بالكاد تُفهم. ينصرف الهندي حاملاً حقيبته بعد ان يُكمل، ولايُجيب عن أي سؤالٍ إضافي حالما يضع الحقيبة على كتفه مجددا، ولايتقاضى سوى ثمن العطر.

ذات يوم بعيد، إنتبه الناس أن الهندي قد انقطع منذ فترة عن المجيء إلى الشارع، ولامَ سكان الشارع بعضهم، كيف لم ينتبهوا لغيابه. قال رجل يعطي رأياً في كل شيء إنه عاد على الأرجح إلى بلاده الهند، وقالت إمرأة عجوز انها رأته في الحلم وأخبرها انه مات، وان روحه سكنت في إحدى أشجار الزيتون في بلاد نائية.

لكن أحدهم إدعى أن رجالا تابعين للحرس الخاص، ألقوا القبض عليه وقد أمضى سنيناً يعيش في قصر ساجدة، زوجة صدام حسين، التي سمعت شائعات عن مهارته في قراءة الطالع فقررتْ أن تحتكره لنفسها.

تحب سوزان حكاية ذلك العراف الهندي وتطالب (شنباره) أن تزودها بكل التفاصيل التي تعرفها عنه. لطالما تمنت لو التقته مرة في حياتها، ربما كانت ستحصل على الإشارة التي تدلها على الحدث الأعظم في حياتها. في سنين قادمه تخيلته سوزان، ضوءا غاب خلف الافق ونسيت الموضوع.

حتى أول الغيوم التي أمطرت على هذا الشارع، تتذكرها (شنباره) وتقول إنها كانت سوداء وأمطرت عليهم يوما كاملا. عيدان وشنباره يعرفان أيضا حكاية مالك الأرض الأصلي واختفاءه في ضروف غامضة، إضافة إلى متاعب وصعوبات واجهتهما وحوداث حصلت في سنين غابرة.

في البداية كانت أحاديثهما تلقى رواجاً عند كبار السن والجيل الذي جاء بعده بقليل. لكن الجيل الجديد لايبدو مُهتماً بهذا التاريخ الشفاهي، ويعتبرعيدان وشنباره مُخرفان لايجدان مايفعلان، لذلك هما يخترعان هذه الحكايات التي لا أصل لها او لاتنفع بشيء حتى في حال كونها حقيقية وقعت بالفعل.

اليوم (عيدان) أو الحجي هو المصدر الوحيد لتاريخ هذا الشارع

بعدما توفيت شنباره قبل عامين بسكتة قلبية مفاجأة. صباح ذلك اليوم جلست لوحدهاحزينة في زاوية من زوايا غرفتها، منتظرة أن يسألها عيدان عمّا يحزنها. لكنه ضل مشغولا عنها بمتابعة محاضرة في التلفزيون للسيد محمد الصافي. وإذ وصل السيد إلى فقرة النعي، غطى عيدان عينيه بيشماغه متأهبا للبكاء. وحين وصل صوت النعي الى شنباره نهضت بصعوبة بعد ان توكأت على كرسي قريب.

سارت بخطىً بطئية وهي تعدل شيلتها وتقربها من فمها، فيما كانت أنفاسها تعلو، متهيأةً أيضا لطقوس لطالما تشاركاها معا خلال هذا العمر الممتد على ثمانية عقود. سيعلم عيدان ان ماسيحدث بعد قليل هو طقس البكاء الاخير، وانه على مقربةٍ من فراقٍ طويل.

خلال ذلك كان السيد الصافي يقطع الرثاء ويحث الحاضرين على البكاء من قلوبهم ثم يواصل النعي وقد غيّر الطور وقرأ ابياتا جديدة لامست روح شنباره، وتطابقت تقريبا مع حدثٍ تتوقع حصوله:

انه جويعده وحمّل ضعنهم

وجني غريبه وماني منهم

ويحمّلون وانه اتفكر الهم

لم تنتظر حتى تجلس، انفجرت باكية وهي تضع يدها على كتف عيدان وتهوي إلى الارض ثم تعدل جلستها وتسحب اطراف ثوبها نحو قدميها. وجد عيدان جلوسها بجواره حافزا مثيرا ليذرف المزيد

من الدموع. بقيا يبكيان، وسكت عيدان بعد انتهاء النعي وفرك عينيه وسعل سعالا قويا، فيما واصلت بكاءها شنباره، ولم تخبر عيدان عن حلمها الذي جعلها حزينة. رأت شنباره في حلم تلك الليلة أن أمها بصحبة موتى آخرين لم تعرف منهم سوى (سيد يوشع) يجلسون في صالة الاستقبال، وهم ينظرون اليها وهي مستغربة من اجتماعهم معا في بيتها. وبعد وقت لاتتذكر مالذي حصل فيه، قالت لها أمها:

ـ اجينا ناخذج ويانا.

وعندما إستيقظت أيقنت أنها راحلةٌ عن هذه الدنيا.

قبل مغيب شمس ذلك اليوم ماتت شنباره، فهرعت نسوة البيوت القريبة الى بيت عيدان. دخلن الى غرفتها وهن يصرخن واكتفت أخريات منهن بالحضور فقط، بحجة أنها إمرأة كبيرة معمّرة تمتعت بحظٍ وافرٍ من الحياة. القسم الثالث منهن إتخذن موقفا وسطيا، بكين بهدوء وقد غطين وجوههن بأيديهن. لكن احداهن خرجت تطلب المساعدة من الرجال الذي تجمعوا خارجا. قالت إن حجي عيدان في حالة صعبة وعليهم أن ياخذوه بعيدا عن جثة شنباره. وحين دخل بعضهم وجدوا عيدان يجلس عند رأس شنباره، كان يبكي منكسرًا كطفل وبان هَرِماً أكثر من أي وقت مضى. كأنه شاخ فجأة. كأن أعمارنا لاتُحسب بتعاقب السنوات، بل بتعاقب الفقد. نبكي فنكبُر، نخسر تجربة فنكبُر، ننكسر فنكبر، ويهزمنا الحب فنكبر.

ولأن أوراقنا الرسمية لاتسجل كل ذلك، سنبقى دوماً عاجزين عن إحتساب أعمارنا الحقيقية.

جره أحد الرجال الأقوياء. وضع يديه تحت إبطي عيدان وسحبه خارجا، ووبّخه أخر وذّكّره أنَّ الرجال لايبكون، وقال رجلٌ يحك أنفه غير مكترث:

ـ علينا الإسراع بدفنها قبل حلول الظلام.

وصلت سوزان وأمها متأخرتين قليلا. رأين النسوة وهنَّ يجلسن بشكل عشوائي حيث كانت الغرفة مستطيلة الشكل، رطبة الجدران، وبدا ان طلاءها لم يجدد منذ وقت طويل. أما الارضية فقد فُرشت بسجاد قديم، وكان في الوسط حصيرة صغيرة لم تغطي الارضية بشكل كامل. عند الركن المواجه للباب وضعت (شنباره) مغطاة بعباءة جديدة شديدة السواد، قيل انها اشترتها مؤخرا ولم تلبسها أبدا.

بعض النسوة جلسن بعيدا وأحاط البعض الاخر بجثة شنباره، وكان بإمكان سوزان أن تجلس قريبا منها إلا أنها تعمدت الجلوس في زاوية بعيدة، ولم تنتبه إلى المكان الذي جلست أمها فيه. إنها المرة الاولى التي ترى فيها سوزان ميتا.

توترت قليلا وهي تُلقي نظرةً من بعيد على الجسد المسجى. ولم تدري أكان خيالا أم حقيقة أنها تشاهد الجثة تتحرك قليلا، وأن موتى أخرين تشعر سوزان أنها تعرفهم أو رأتهم من قبل، حضروا

الآن، وهم يجلسون خاشعين ويتحدثون إلى بعضهم. حاولت الإنصات لكنها كانت بعيدة ولم تسمع شيئا. إزدادت توترا، حولت بصرها إلى أعلى فلمحت صورة للإمام علي، معلقة على الجدار. غمرتها سكينة وهي تتأمل عينيه الرحيمتين وهالة النور التي تحيط به. عندئذ، إختفى الاموات الذين رأتهم قبل قليل. تذكرت أحمد، حاولت البكاء مرارا لكن دموعها لم تطاوعها.

أكبرالحاضرات سنا أطلقت صوتها بأبيات من النعي. بدا صوتها أجشّا حنونا، أخذ يرتفع شيئا فشيئا. وحين سكتت جميع النسوة مصغيات، أنشدت وهي توزع نظراتها عليهن وتنزل عباءتها على كتفيها:

طبيت ولكيت البيت خالي

صحنا يالحبيبه تعالي

كلبي انخمش والدمع هالي (انخمش بمعنى انفجع)

لزمت النعش واركض وراها

وجلبت باذيال الخذاها

امي واريد امشي وياها

عند كل مقطع ينتهي، كان صوت البكاء يرتفع، وكانت بعض النسوة يطلقن صرخات أو كلمات، مثل: عمت عيني او يايمه. لتأكيد أنهن يتفاعلن مع الحدث بشكل جيد وأن صوت النعي قد جرح قلوبهن.

وكانت صاحبة الصوت الأجش تدرك أن معظم النسوة اللواتي يبكين الآن، يتذكرن أعزاء فقدنهم. أمهات أو إخوة أو ازواج أو أبناء قضوا في الحرب. لذلك كانت صاحبة الصوت الأجش، تنتقي أبيات الشعر بعناية، وكأنها تنكأ لكل واحدة منهن، جراحا قديمة، تنزُ منها ذكريات وصورا لماضٍ صار بعيدا.

نظرت صاحبة الصوت الأجش إلى إمرأة تعرفها، توفيت أمها قبل سنوات. كانت تلك الأم تدّخر كل شهر مبلغا من راتبها التقاعدي، تنتظر زيارة ابنتها التي تعيش أوضاعا صعبة. تقدم لها المبلغ مع ملابس واغراض ولعب لأطفالها الاربعة. بعد وفاة الأم، وفي ليلة شتائية قاسية البرودة، قام أخوها وبتحريض من زوجته بطردها وأطفالها في الشارع، حيث قضت اسبوعا كاملا تعيش تحت أحد الجسورحتى اهتدى إليها أحد الموسرين ومنحها بيتا من الصفيح. إستحضرت صاحبة الصوت الأجش هذه الحكاية وأنشدت:

عني وعن بزري تنشدين

يالوالدة يم كلب الحنين

علينا ييمه موش تبطين

بعد مانجي ونكول اهلنا

كولي بعد بالبيت شلنا

جنه نجي من غير منه

ياكعدتي وياج حلوه

ودهري بلاني اعليج بلوه

انه جايه لبيتج شسوي

لا واحد طلعلي وكال ضلي

جنهم غرب ماجنهم اهلي

كتلني الولد جرجر ذيالي

ويكلي وديني لخوالي

سكتت صاحبة الصوت الاجش، فمسحت النسوة دموعهن بأكمام عباءاتهن، واستنشقن بقايا بخور لم يغادر المكان، ثم وجهن نظرات حزينة إلى الجسد الساكن. ثلاث منهن أو أربع ممن دخلن صارخات، شكلن حلقة وسط الغرفة بعد ان شدت كل واحدة منهن عباءتها حول خصرها إستعدادا لمراسم اخيرة قبل ان يدخل الرجال لحمل الجنازة خارجا.

رددت إمرأة بدينة:

ام البيت اجينا ومالكيناها

شالت والمحنه انشالت وياها

موحش بيتها ومترب مصلاها

فرددت خلفها النسوة جميعا. بعد برهة بادرت اخرى إلى القول:

عليج انكاب والبيرغ يشيلونه

وقالت ثالثة:

ـ خلنا نوادع ام خصور هالجربت السياره.

ذهلتْ سوزان وهي تتابع الطقوس التي تقوم بها النسوة وكم هي شبيهة بما قرأته عن الموت في الحضارات القديمة، خصوصا عند السومريين وهم يؤبنون موتاهم. إذ يقال إن الطقوس فيها تبدأ من المناحة في بيت الميت، حول سريره، وتؤدي النائحات المحترفات فيه دوراً مهماً، وهن يلطمن رؤوسهن وصدورهن، ويحثين التراب فوق أجسامهن، وينادين السماء كي تشهد على حزنهن.

بعد ذلك وعند عودتهما إلى البيت سألت سوزان أمها عن معنى (عليج انكاب والبيرغ يشيلونه) فرحت فضيله بسؤال ابنتها، ودب في أعماقها شيء من الفخر أنها مازالت تعرف أشياء لايعرفها كثيرون.

أخبرتها إن من طقوس العزاء عند الجنوبيين أن يتنقب الرجال ويرفعون الأعلام لفقد الأعزاء، بمعنى أن يتلثموا بيشاميغهم وهذه الحالة تقتصر على موت الرجال دون النساء، وهم يعدون التنقب لفقد المراة عيبا، ماعدا حالات محدودة تكون فيها المرأة المتوفاة ذو شأن عظيم. عندئذ تعامل معاملة الرجال، فيتنقبون لأجلها ويرفعون الاعلام تكريما لها وفجيعة لفراقها.

بحثت سوزان عن تعليق مناسب على تفسيرات أمها فلم تجد واكتفت بالصمت وخاب امل فضيله من صمت ابنتها. توقعت على

الأقل أن تبدي شيئا من الإعجاب بمعلوماتها أو تسألها عن شيء اخر. لكن سوزان في الحقيقة كانت مشوشة وحزينة على رحيل شنباره، وسألت في سرها، أين هي الان؟ هل ترانا، هل بإمكانها بعد الآن، البكاء، الفرح، الألم. كيف ستألف مكانها الجديد، ربما ستصادف احمد في مكان ما من أرض الموتى.

سرحت سوزان طويلا ثم نظرت إلى عصفور ينقر زجاج النافذة، ثم تذكرت سوزان كيف كانت شنباره تنطق إسمها بصعوبة. تحاول أن تصحح لها مرات عديدة، ومع ذلك لاتنجح، تقول شنباره:

ـ فلك طر ابوج وين لكه هذا الاسم كلساع يوكف ابلعومي.

ـ على اساس ابوج سماج شيرين (تجيبها سوزان)

أخيرا قبلت سوزان أن تناديها شنباره ب(سوسات). تذكرت وعد شنباره لها أن ترقص في عرسها وتنثر كيسا كاملا من الحلوى على رأسها، تذكرت كيف كانت الأمهات الصغيرات يقصدن بيت شنباره حاملاتٍ أطفالهُن الذين لاينامون ويبكون طوال اليل رغم تأكيدات الأطباء انهم لايشكون من مرض عضوي واضح.

شنباره كانت تحتضن الطفل، تنظر في عينيه طويلا ثم تتحرك شفتاها بكلمات تتلوهن سرا. بعد ذلك تمدد رجليها وتضعه عليهما، تهزه بهدوء فيغط بنوم عميق وسط ذهول الأمهات وفرحهن. وقبل ان يسألنها عن أسرار ماقامت به تبادر شنباره إلى القول:

ـ الزهره نيمته.

(2)

سوزان، وهي بعد مستلقية على سريرها ومايزال ريموت التلفزيون في يدها وجوالها الخالي من أية اشعارات، على حاله، ولكنه ضاعف إحساسها بالوحدة، تتذكر بعد سنتين، شنباره، وتتمنى لو أنها الآن تهزها على قدميها. لاتريد أن ترجع طفلة. هي فقط تريد أن تنام. موقنةً، أن موسيقى (جيمس لايت) وأثر الفراشة (لمحمود درويش)، وكل محاضرات (إبراهيم الفقي) عن قوى النفس الخفية، لايمكن لهؤلاء جميعا أن يوفروا فرصة للنوم كالتي توفرها تلك المرأة التي لم تقرأ يوما سطرا واحدا من رواية، ولا سمعت خلال عمرها الممتد على ثمانين عاما بنزارقباني أو موزارت أو دان براون. همست لنفسها:

ـ نعم، يمكن لكل هؤلاء أن يجعلونا نحب، نبكي، نكون بعقد إضافية، لكن أن ننام كالأطفال، فتلك لعبة أخرين لاعلاقة لهم بالموسيقى والشعر، هم فقط يجيدون الحديث بلغة الروح الأولى.

أدركت وهي تسرح في أفكار غير محددة، أن صخبا يسكن في مكان ما من روحها، ضجيج يشبه أصوات باعة جوالين ومتبضعين لايكفون عن الكلام وسيارات تفرغ حمولتهاعلى عجل وعربات يدفعها أطفال يضحكون. خُيل إليها أن سوقا في حي شعبي قد تسلل إلى أعماقها.

لكن الغرفة كانت ساكنة تماما وكان بوسعها سماع خطوات تقترب. مع تحرك الباب، دخلت أمها. أضاءت المصباح ووضعت في خزانة ملابس سوزان كيسا أسودا كبيرا كانت تحمله بصعوبة. أصدر الكيس صوتا عند وضعه فتوقعت أن مابداخله أشياء معدنية إصطدمت ببعضها. إستغربت أن أمها لم تحدثها بكلمة واحدة. ألم تنتبه إلى وجودها على السرير؟ مستحيل، فعيناهما التقتا أكثر من مرة، لحظة إشتغال المصباح، ولحظة وضع الكيس داخل الخزانة، ونظرة عابرة اخرى لاتتذكر متى حصلت. مع ذلك انصرفت فضيلة بسرعة بعد ان أطفأت المصباح وتركت الباب مفتوحا.

ـ حتى صباح الخير ماكو!!! سألت نفسها مستغربة.

لاتتذكرسوزان أن شيئا حدث بالامس يستوجب أن تتجاهلها امها بهذه الطريقة.

لاشيء صار مفهموما في حياة سوزان. وهاهو شيء جديد طاريء غير مفهوم يحدث. تتذكرسوزان جيدا أحداث ذلك اليوم.

صباحا خرج أبوها صبر بسيارته (السايبا) وتحدثت مع أمها طوال اليوم في أمور عادية ومتكررة. اشتكت فضيله من ألم لايحتمل في ظهرها ورفضت أي اقتراح بمراجعة الطبيب. بعد ذلك حثّتها أمها أن تزيل الشعر من وجهها فلا احد يتقدم لخطبة امرأة لها شارب كشارب الرجال. في المساء عاد أبوها واشتكى من ألازدحامات وثرثرة الذين استأجروه وبقي كعادته يتابع الأخبار. وتمنى صبرأن يكون طرفي الحوار في برنامج الليلة، حنان الفتلاوي وظافر العاني.

يقول صبر: إنهما صريحان وهو مل من السياسيين الذين يتحدثون عن العراق وكأنه جنة خضراء لاينقصها سوى (بحيرة سربنتين) ونصب صغير للأميرة ديانا ليكون حديقة (الهايد بارك) في لندن.

إذن لاشيء ملفت حصل، وفرحت سوزان لاحتفاظها بتفاصيل ذلك اليوم.

قامت من سريرها وأزالت ستارة النافذة فلم يتسلل للغرفة ضوء كافٍ، فقد كانت السماء تحجب الشمس بغيوم كثيفة. إختفى فجأة ذلك الصخب الذي دق بقوة على جدران روحها، وحلت مكانه اسئلة كثيرة عن تصرف أمها الغريب قبل قليل، وحكاية الكيس الاسود الكبير.

كانت قريبة من خزانة الملابس وأحست وهي تنظر إلى الكيس، خوفا غامضا من الاقتراب منه. جربت للتغلب على ذلك، أن تتوقع أنه يحوي أغراضا قديمة مستهلكة لم يتسع لها المخزن، ليس اكثر من ذلك. لكن خوفها بقي يتضاعف. إقتربتثم تراجعت وهكذا حصل ذلك عدة مرات. أخيرا استجمعتْ قواها.

فتحت سوزان الكيس ونظرت الى مابداخله. مدوية كانت المفاجأة. يا الهي ماهذا؟؟ مستحيل!!!!.

لقد رأت جوالها (الآي فون) الذي كان في يدها للتو، وملابسها التي نامت بها وماتزال ترتديها وريموت التلفزيون الذي كان في يدها وأشياء اخرى تخصها، كلهن داخل الكيس.

بحركات عبثية تحسست ملابسها وشعرها ونظرت مرة أخرى إلى الكيس فرأتهن داخله. كتمت صرخة فزع كانت ستطلقها وتجمدت في مكانها. صار نبضها يضرب بقوة، فيما الغيوم التي حجبت الشمس قبل قليل هطلت بغزارة، سبقتها أصوات رعد متقطع. رغم ذلك لم تسمع أي صوت من حولها، كأنها اغلقت على نفسها باب معبد مهجور.

بعد ذلك، سمعت نغمة الرسائل تنبعث من جوالها الذي في الكيس. كانت تحتاج إلى قوة جبارة لتوقف ارتجاف يديها قبل أن تمدها لتعرف. فتحت الرسالة. هي ذاتها من الرقم المجهول (سوزان قريبا سينتهي كل شيء...) ضربت وجهها بيديها مرتين لتتأكد أنها لا تحلم، وأن مايحصل هوبالفعل حقيقة. ركضت كالمجنونة صوب الباب، فلمحت خيالا صغيرا مر عبر النافذة. طفلة بملابس المدرسة تجلس تحت النافذة وتقرأ بمجلد ضخم، تضع إصبعها الصغير على سطور المجلد وتتابع القراءة. لم يكن شكل الطفلة غريبا على سوزان. هذه الملامح تعرفها جيدا، سمار الطفلة، طريقة جلوسها، شعرها المجعد، والشريط الاحمر الذي رفعت به الطفلة شعرها، حرك فيها حنينا قديما. بقليل من التركيز عرفت أن هذه الطفلة هي سوزان نفسها. صرخت:

ـ هاي اني من جنت بالاول ابتدائي.

الطفلة رفعت رأسها ونظرت في عينيّ سوزان بأبتسامة حانية. ولم تتذكر سوزان ماحصل لها بعد ذلك.

(3)

حوالي الثانية بعد الظهر أو قبل ذلك بقليل، أفاقت سوزان من الغيبوبة. كان المطر الغزير قد توقف، وبدأت السماء تستعيد شيئا من زرقتها ماعدا غيمات تفرقن في أرجاءها. قالت عنهن فضيلة إنه خير قادم، فقاطعها صبر وكان غاضبا لأن غرق الشوارع أبقاه في البيت:

ـ ولاتسكت ماغي فرح.

حركت شفتيها بعدم الرضا وقالت وهي تضع يدها على جبهة سوزان تتقحص حرارتها:

ـ كله منك.

سرح صبر في كلام لم يقله لفضيلة. ردده مع نفسه وهويشعل سيجارة وينظر إلى الجدار وقد انتفخت أجزاء منه بسبب الرطوبة. لايدري في تلك اللحظة كيف رأى الرطوبة على الجدار وكأنها وجه حزين.

بقي صبر يحدث نفسه:

ـ الجدران مثلنا، تشبه خيباتنا. من نجا منها من إصابة بالرصاص، فلم ينجو من إصابة بالكابه. كيف بوسع جدار أن يفرح، وظهره مثقل بلافتات الشهداء ودعايات المرشحين وإعلانات مكاتب السفر. لماذا لم نعد نشاهد على الجدران، الأحرف الاولى لإسماء العشاق وقلوب الحب التي تخترقها الأسهم وأبيات الدارمي والحكم التي

يخترعها المراهقون. لقد كانت جميلة حتى مع كونها تحتوي على أخطاء املائية كثيرة.

حضرت في ذهن صبر أجوبة كثيرة على هذه الاسئلة، لكنه قدّر أن الوقت غير مناسب. قطع تأملاته وأشعل سيكارة أخرى.

كما وعدهم جارهم الدكتور (أمجد) الذي جاء لمعاينة سوزان عند حصول حالة الإغماء لها. قال لهم:

ـ ستفيق، لاتخافوا. مجرد تعب بسيط وسوء تغذية.

كان الدكتور أمجد قد سكن الشارع حديثا. تزوج من زميلة له بعد تخرجهما من كلية الطب وجاءوا للسكن هنا في بيت تشاركت عائلتيهما بدفع ثمنه. لذلك تردد صبر أن يطرق عليه الباب لكنه اضطر لذلك، فقد انقطعت معظم الطرق المؤدية الى أي مستشفى بسبب الامطار.

بدأت سوزان تستعيد وعيها. وفي اللحظة التي فتحت فيها عينيها، إنتبه صبر وقفز من مكانه ودمعت عينا فضيله فرحا وراحت تنظر الى السماء شاكرة (أم البنين) التي لم تخذلها في هذه المحنة، وأحست فضيلة في نفسها ندماً على كلمات تعتقد انها كانت قاسية. فعندما كانت تمطر بغزاره وبينما سوزان فاقدة للوعي خرجت فضيله منكسرة ووقفت تحت المطر مناجية أم البنين:

ـ اريد بتي منج.

قالتها كجمرة رمت بها نحو السماء ثم عادت الى الداخل. لكن قلقها لم يهدأ، فرجعت مسرعة ووقفت تحت المطر مرة ثانية:

ـ اذا ما ترجعين بتي، بعد لا اعرفج ولا تعرفيني.

لذلك تشعر فضيلة الآن بتأنيب ضمير أفسد فرحتها، وقد قررت تفاديا لهذا الموقف المحرج، انها ستطبخ على شرف أم البنين، قِدرا كبيرا من الرز الهندي ذو الحبة الطويلة مع قِدر صغير من اللحم توزعه على بيوت الجيران القريبة وأقسمت أن أكبر قطعة في قدر اللحم ستكون من حصة بيت الدكتور أمجد. عندما قالت فضيله ذلك في سرها، أحست بفرح كبير يغمرها وأيقنت أن أم البنين قد سامحتها.

شيئا فشيئا، بدأت سوزان تسترد كامل وعيها. حركت يديها ببطيء وراحت عيناها الصغيرتان تدوران في أرجاء المكان. قالت بصوت بدا مُتعبا:

ـ عطشانه.

لم يتمالك صبر نفسه من الفرحة. راح يرقص حولها كفراشة، مردداً أهازيجاً شعبية وضاربا بكفيه فرحا والسيكارة في فمه. وسارعت فضيلة إلى احتضانها، مطيلة النظر في عينيها، كأنها قد ولدتها للتو. في البداية لم تكن سوزان تميز ملامح والديها بوضوح، وكأن على وجهيهما مايشبه دوائر زرقاء وخطوط ممتدة ونقاط بعيدة تظهر وتختفي.

مسحت فضيله وجه سوزان بطرف شيلتها. وعندما سرت إلى روحها رائحة أمها، دمعت عينها وصارت ترى كل شيء من حولها، كأن عينيها تبصران العالم لأول مرة.

قررت وهي تستعيد ماحصل لها بتفاصيله الدقيقة، ألّا تخبر أحدا، وقالت في نفسها من سيصدقني؟؟؟ أنا نفسي لن أصدق أحدا لو أخبرني انه شاهد تلك الأحداث التي تشبه كوابيس الممسوسين وأفلام الغموض وحكايات الجرائم المعقدة التي تنتهي دون معرفة القاتل.

واصلت حديثها لنفسها:

ـ ولكن من يدري!!!ربما كان كل ذلك وهماً، خيالاً. في كل الاحوال، إنه شيء لايمكن أن يحصل مرتين.

دون أن تخطط سوزان، وجدت نفسها أمام قرار:

ـ إنها مشكلتي لوحدي ولاخيار لي سوى المواجهة، مهما كانت النتائج. سأذهب الى خزانة الملابس الآن.

لم يكن بوسعها الانتظارأكثر. ربطت سوزان شعرها بمشبك صغير إلى الخلف واعتدلت لتقوم. حاول صبر مساعدتها على النهوض لكنها رفضت وقالت مبتسمة:

ـ كلشي مابيه راح اروح لغرفتي.

فرحا وهما يتابعانها تمشي وكادت فضيله تزغرد لكنها تذكرت

ألم ظهرها وسكتت. أما صبر فقد أحس بالجوع وحيث ان فضيلة لم تطبخ شيئا هذا اليوم، فقد قرر الذهاب لشراء كيس من الأندومي.

لايفصل بين غرفة الإستقبال وغرفة سوزان سوى ممر صغير يمكن إجتيازه بخطوات بسيطة، ويستطيع الذي يقف عند بداية الممر أن يرى خزانة الملابس من بعيد في حال كان الباب مفتوحا. لكن سوزان وهي تقترب من الغرفة احست أنها تقطع طريقا طويلاموحشا. توقفت فجأة.

في تلك اللحظة آمنت بخيالها وطلبت منه ألّايخذلها. رسم الخيال في طريقها مرفأ وسماء صافية ونوارس بيضاء تضرب بأجنحتها، وكان هناك سفينة تقترب. هدأ ذلك من خوفها قليلا، فواصلت المسير.

نظرت إلى الخزانة فوجدت بابها مغلقا. جثت على ركبتيها ووضعت يدها على المقبض الذهبي للباب. كانت أنفاسها تعلو وقلبها يتأهب لمفأجاة. سحبت المقبض فانفتح الباب. إتسعت عيناها دهشةً. لاوجود للكيس الأسود، ولا حتى أثر يدل على أنه كان هنا. كانت ملابسها منتظمة على قاطع الالمنيوم في الأعلى وفي أرضية الخزانة أيضا.

هدأ قلبها الذي كان يتأهب لمفاجاة، وغمرها فرح قلِق، وانضم إلى سرب النوارس في مخيلتها سرب أخر، وشاهدت السفينة أكثر قربا. عندها تأكدت أن خيالها مازال يقف إلى جانبها.

نهضت تتفقد جوالها. كان كماهو في مكانه على المنضدة الملاصقة للسرير. فتحت كاميرته الأمامية والتقطت لنفسها صورا كثيرة في أوضاع مختلفة. صارت الآن متأكدةً تماماً أنها امرأة قوية، وكان لابد من خطوة أخيرة لتكمل الخلاص من رحلة الوهم هذه.

عليها التأكد أن الطفلة التي شاهدتها جالسة تحت النافذة تقرأ بمجلد ضخم، من الوهم والتخيلات أيضا. ذلك سينهي كل شيءويعيد الأمور إلى نصابها. لم تهمس لنفسها هذه المره بل قالت بصوت عالٍ، إنها ستذهب الى النافذة لتثبت لنفسها أن كل ماحصل محضُ أوهام.

خرجت من غرفتها واجتازت بسرعةٍ الممر، وصولاً إلى الباب الذي يطل على حديقة البيت الصغيرة. وقفت في نفس المكان الذي كانت فضيلة تناجي فيه أم البنين.

أحست بحاجتها الى تلقين نفسها من جديد، أنها امرأة قوية، وأنها ليست لوحدها هذه المرة، معها فرحها وسربي نوارس وسفينة. أحست أن خيالها لم يتخلى عنها، بقيت تمشي بمحاذاة الحائط على مساحة صغيرة من اليابسة لم تغمرها مياه المطر. لفح وجهها هواء بارد، أربكها قليلا، لكنها واصلت سيرها.

صارت النافذة قريبة جدا وكان بوسعها أن تنظر من بعيد لتتأكد. لكنها أصرت أن تصل إلى نفس المكان الذي رأت فيه الطفلة. أغمضت عينيها لحظات ثم فتحتهما. لا أثر لشيء. لم تكن هناك

طفلة تجلس تحت النافذة ولا مجلد ضخم. لم يكن في المكان سوى بقعة تجمعت فيها مياه المطر وأوراق أشجار جاءت بها الريح الى هنا. عاودتها سكينة فقدتها منذ زمن طويل، وأحست كما لو أن راهباً أهداها قلبه ورحل بعيدا.

في طريق عودتها إلى الداخل لم تكن سوزان تحرص على المشي في المساحة اليابسة. لقد تركت لقدميها حرية أن تقودانها في أي طريق. ليس مهما أن يعلق شيء من الطين بملابسها، ألأهم انها تخلصت من أكداسٍ من الوهم علق بروحها. سارت وهي تتابع حركة الغيم وتصغي لمواء قطة مرت قريبا منها. وقبل أن تنعطف سوزان نحو الباب لتدخل، ومع نظرة خاطفة إلى شجرة السدر القريبة، حدث مالم يكن متوقعاً. وجدت نفسها سوزان بمواجهة صدمة لم تخطر على بالها.

(4)

أدرك صبر وهو ذاهب لشراء كيس الأندومي، كم ستكون المهمة عسيرة. وفكر لو أنه اقتنع باقتراح فضيله بالطماطم المقلاة بالدهن لكان أفضل. قال وهو يمسح على صلعته وينظر إلى الشارع الغارق تماما بالمياه:

ـ أحتاج أن أكون الآن جندياً ضمن القوات الخاصة البريطانية، لأتمكن من الوصول إلى أسواق سيدهاني.

ورغم أنها لم تمطر سوى ساعات قليلة لكن الأخبار نقلت أن معظم أحياء بغداد وشوارعها صارت بركاً وبحيرات وتحولت التخسفات إلى حفر عميقة، وصار الناس في بعض الأحياء بعد أن تقطعت بهم السبل، يتنقلون بواسطة زوارق صنعوها على عجل، من المجمدات القديمة وقطع الألمنيوم.

زحفت كميات هائلة من المياه إلى داخل البيوت المنخفظة، فطفحت مياه المجاري وأتلفت الأثاث والسجاد والطباخات، فيما شوهدت تحفيات ثمينة وهي تعوم في أرجاء البيوت والشوارع كأنها قطع من حطام سفينة غرقت في البحر. عندها ضج الفيس بوك بصورمختلفة ومقاطع فيديو ومنشورات تشتم الحكومة وأمين العاصمة والسياسيين جميعا. أعلنت الحكومة إثر ذلك انها استنفرت كل ملاكاتها والياتها من أجل تفادي حصول كارثة. وشوهدت بالفعل سيارات حوضية كبيرة تقوم بسحب المياه من بعض الشوارع الرئيسة، لكن الناس لم تقتنع بذلك، خصوصا بعد أن برر مسؤول كبيرفي الامانة ماحصل. قال في تصريحات رسمية إن مجهولين غرباء قدموا ليلا ووضعوا في المنهول المركزي للعاصمة صخرة كبيرة لايمكن تخيلها، وهي التي ادت إلى كل هذا الطوفان. إستشاط الناس غضبا وتسائلوا كمافي كل مرة عن مصير المليارات التي تُجنى من واردات النفط وتطاحن النشطاء والمدونون فيما بينهم، وأطلق أحدهم هاشتاك (إني اتنفس تحت الماء) واكتفى أخر بكلمة واحدة كتبها: (حرااااامية). وقام مُدوّنون بنشر مقطع فيديو

شهير للشيخ زايد وهو يسأل مواطناً إماراتيا كيف يسكن بالإيجار في دولة يحكمها هو. مدون عراقي يعيش في السويد منذ عشرين سنة كتب(لن نسكت على هذه المهزلة) فشتمه المعلقون جميعا، حتى اصحاب البيوت التي غرقت، شتموه أيضا:

ـ ابن الكلب، كلساع تاخذ سيلفي بحديقة جوتنبرج ومسوي روحك مقهور علينا، خل يولن.

كفَّ صبر بنطاله إلى مافوق ركبته وانتعل حذاءًا بلاستيكيا قديما، عثر عليه بصعوبة في المخزن القديم، متهماً فضيلة بالإهمال في الحفاظ على أشياءه الخاصة فلم تكترث فضيلة وأعادت عليه إقتراحها بأن تقلي له الطماطم. جدد رفضه للإقتراح وبدأ أول خطواته مُصّرًا على بلوغ هدفه وراح يشق طريقه وسط الأمواج المتلاطمة.

تخيل نفسه من عصر أخر، بطلا لإسطورةٍ قديمة، يجوب البحارمنذ زمن بعيد بحثا عن مرجانة فريدة. ضحك بصوت عالٍ عندما أدرك ان تلك المرجانة هي كيس أندومي. خلال ذلك شاهد (بطو المخبل) يرتدي فانيلة بيضاء محفور عليها صورة كرستيانو رونالدو وشورتاً احمر، عليه علم بريطانيا. كان (بطو) يلعب وسط الماء مع أحد اطفال الشارع وتصور أن صبر يضحك عليه، فتوعده بتهشيم رأسه بنصف طابوقة وأخذ بالفعل ينظر يمينا ويسارا يفتش عن نصف الطابوقة. وتيقن صبر انها نهايته. ذلك

لأنه يعلم أن بطو ينفذ تهديده بسهولة وهو قد فعلها مع أخرين سخروا منه أو ظن ذلك.

كان (بطو) طويل القامة مربوعاً، وجهه مثلث بأنفٍ طويل وعينين حمراوين على الدوام. تقدر النسوة عمره بأربعين عاما، ولكنهن يختلفن حول الأسباب التي أدت به إلى هذا الحال. وتقول زوجة أخيه إنه لا ينام أبدا، ويتحدث مع جنية طوال اليل. طوّر النسوة الأخريات حكاية الجنية، فأضافت إحداهن ان (بطو) له من الجنية ثلاثة أولاد من الجن يسكنون مع إمهم في وادي حضرموت باليمن، وانهم يأتون لزيارته مرة كل شهر عند اكتمال القمر.

يعيش بطو حالات مزاجية مختلفة ولايستطيع أحد أن يحزر مواقفه وردات فعله تجاه الناس. إذ يمْكِنه ببساطة أن يحتضن حتى القادمين الغرباء ويقدم لهم أي مساعدة يطلبونها. وبلحظة ربما ينقلب على أقرب المقربين ويهاجمه بأي سلاحٍ يتوفر عنده ساعتها. لذلك يعرف صبر جيداً معنى أن يتوعده (بطو) بعذاب أليم.

بعد لحظاتٍ من الرعب عاشها صبر، سُمع من أحد البيوت صوت إمراة تنادي على الطفل الذي يلعب مع بطو:

ـ ولك تعال لاتصخن وتسويلي سالفة.

فانشغل بطو بطمأنتها على طفلها. قال لها وقد تحول فجاة غضبه إلى ابتسامة رحيمة

ـ مدام يلعب ويايه مراح يصخن.

لم تُبدِ المرأة إهتماما بكلام بطو ولا اقتنعت بتطميناته، وأقسمت على ابنها اذا لم يدخل الآن إلى البيت فأنها ستضع احدى يديه على العين الكبيرة للطباخ حتى تحترق تماما.

إنصرف الطفل فورا، وغرق بطو في حزن داهمه فجأة. تذكر أمه. فبعد وفاتها لم يعد أحد في هذه الحياة يخاف عليه أن يمرض أو يدعوه للدخول الى البيت. ليس له سوى أخويه المنشغلين على الدوام بأمور حياتهما الخاصة والسعي وراء لقمة العيش التي يواجهان صعوبات كثيرة من أجل توفيرها. كانا يخرجان فجرا ولا يعودا إلا بعد ساعة متأخرة من اليل. خلال هذا الوقت يبقى بطو في الشارع يتحدث إلى الكبار عن عشقه للممثلة المصرية (مي عز الدين) ويشتم تامر حسني بأبشع الشتائم، حيث يعتقد انه أقوى منافسيه في حبها. يستمع الناس غالبا إلى تجربة بطو العاطفية ويأخذونه على قدر عقله، ماعدا (أبو شوكت الحقنه) المعروف بفضاضته واجوبته القاسية.

قال لبطو مرة بلهجة بغدادية:

ـ شنو خلصوا الرياجيل حتى تجي (مي عز الدين)تحب واحد خبل.

عندها استشاط بطو غضباً وركض خلفه، فأسرع (ابو شوكت الحقنه) ودخل إلى البيت ولم يشاهده أحد لثلاثة أيام، خوفا من أن يبطش به بطو.

وعندما لايجد بطو أحدا يحدثه عن حبيبته فإنه يقضي الوقت باللعب مع الاطفال ويتصرف كأحدهم بالضبط. ويعرف الجميع أن بطو رغم نوباته العدائية إلّا انه لم يضرب طفلا أبدا. وفي أحيان كثيرة يبقى بطو لوحده، يطلق صرخات مدوية غير مفهومة، تعوّد عليها سكان الشارع ولم تعد تُفزع أحدا أو تثير إهتماما يُذكر.

ويحدث أن تنسى زوجتي أخيه أن تناديا عليه ليأكل. لذلك هو يعتمد في طعامه على مساعدات يقدمها له الجيران باستمرار. ولطالما إهتمت سوزان أن تحمل اليه صينية كبيرة تعدها فضيله من بقايا طعامهم، الى درجة ان بطو كان يعرف مواعيد الغداء والعشاء في بيت صبر، وكان يخجل ان يطرق الباب ويبقى واقفا عند السياج منتظرا خروج سوزان وهي تحمل الصينية. وحين يسمع صوت حركة الباب، يركض نحو سوزان بإبتسامة عريضة، يأخذ منها الصينية ويقول لها:

ـ فدوه لكلبج، شكد احبج.

مسح بطو أنفه بيديه وشق طريقه وسط موجات الماء يضربها بقدمه، متجهاً إلى جدار أحد البيوت القريبة، حيث جلس وحيداً. أراد أن يُطلق صرخته المدوية المعتادة لكنه لم يقدر. شعرَ لحظتها انه بلا صوت.

أدرك صبر انه نجا بأعجوبة لكنه حزن على بطو ثم قال في نفسه، متى اكترثت الحياة لأحزان الأصحاء حتى تهتم لأحزان المجانين،

ثم أكمل طريقه. قبل أن يصل إلى الاسواق بخطوات قليلة شاهد (أم جواد) جارتهم عائدة من السوق وعلى رأسها زنبيل كبير ثبتته بأحكام. وكانت عباءتها مفتوحه وبعض شيبها بارز وجواربها غاطسة في الماء حتى ركبتيها. عندما رأت صبر خجلت من منظرها وقالت وهي تضحك وتغطي فمها بكفّها:

ـ شني هاي ياربي.

أخيرا وصل صبر إلى الأسواق. وجد سيدهاني يجثو على ركبتيه وقد غمرتهما المياه وعيونه مسمّرةٌ على عمود الكهرباء الذي بدأت خيوط من الدخان تخرج من قاعدته المثبته بكتلة إسمنتية على الأرض. سلّم عليه فلم يرد ونظر إلى صبر بعينين مملؤتين رعباً. قال سيد هاني مشيرًا إلى عمود الكهرباء:

ـ حينفجر والنبي، والنبي حينفجر.

ضحك صبر ودخل إلى الأسواق. قبل أن يتناول كيس الأندومي من الرف، أقترب منه طفلٌ بدين، إبتسم له وقال:

ـ عمو عمو اني شطيره.

لم يفاجئه كلام الطفل، وعرف انه متأثر بافلام كارتون شاهده على قناة سبيس تون، لكن الفكرة أعجبته، سأله:

ـ عمو شطيره مال شنو انت؟؟؟

أجاب الطفل بثقة:

ـ اني شطيره مال لحم.

قاطع حديثهما رجل يرتدي دشداشة وسترة رصاصية وله عينان كبيرتان جدا، كأنه هارب من جماعة يريدون قتله. دخل إلى الأسواق قاصدًا الثلاجة المخصصة للأجبان والقيمر. تجاهل الرجل ذو العيون الكبيرة صبر، ووجه كلامه للطفل:

ـ لالاعمو، لاتكول اني شطيره، كول اني شطير، لأن عيب انت رجال.

كره الطفل كلام الرجل، وقال صبر إن في كل مكان يوجد أشخاصٌ يدسون أنوفهم في كل شيء، مهمتهم في الحياة انهم يخربون المواقف الجميلة. قرص صبر خد الطفل وانصرف.

. في طريق عودته إلى البيت، شاهد صبر سيارة غارقة بالماء وكانت من نوع (ستار اكس) وكان عليها جنازة، وفي داخل السيارة جلس رجل منتقب بيشماغ، وامرأة تبكي، أما السائق فكان حائراً ينظر من أرض يابسة إلى سيارته. حدَّث(صبر) نفسه وهو ينظر إلى السماء وقد حَشَدتْ غيوماً جديدة متأهبة لمطر وشيك:

ـ في عصور سحيقة، فكر الانسان كثيرًا بطريقة ينتصر بها على الموت، بل لعلها كانت من أفكاره الأولى وهو يكتشف أسرار هذا العالم. حاول جاهدا أن يبحث عن شيء يمنحه حياة بلا نهاية، وسد كل المنافذ التي يتوقع أن ينفذ اليه الموت من خلالها. إختبأ الانسان بالكهوف والجبال واحتمى بالأشجاروالعتمة. وخاف أن يفترسه

الجوع، فافترس الحيوانات وأكلها نيئة. ورحل عبر أراضٍ بعيدة يبحث عن نهر أو عين ماء، خشية أن يقتله العطش. لكن ومنذ ذلك الوقت، مات المليارات من البشر. الملوك والخدم، المُتخمون والجياع، الجنرالات النبلاء والجنود الذين لاقدر لهم، إنطفأوا جميعا، وأذعنوا صاغرين لنهايتهم، بل قضى تعاقب السنين على أي ذكرى لهم. نحن اليوم نجرب مثلهم لعبة الإختباء من الموت، نحاول بطريقتنا هزيمته. حتى عندما نقتل بعضنا، فإننا نمارس لعبة الإختباء من الموت. في النهاية ومهما إبتكرنا اساليب جديدة متطورة، ستبقى في الحقيقة مجرد حيل بدائية تشبه الذي يغمض عينيه ويسأل الأخرين:هل ترونني الآن؟؟

كان صبر وهو ينهي تأملاته قد وصل إلى البيت، واعتراه شعور بالرضا انه ورغم الظروف الصعبة التي يعيشها، مازال قادرا على تفسير الحياة بطريقة مختلفة، لكنه سخر من نفسه ايضا عندما رأى بنطاله المبلل بالطين والماء الآسن. قال وهو ينظر إلى سرب من النمل يندفع تباعاً نحو فتحة في جدار:

ـ لو كنت أمتلك قراءة مختلفة للحياة، لما تمرغت في الوحل من اجل كيس أندومي!!! أنا أمارس لعبة الإختباء من الموت أيضا.

الفصل الرابـع

(1)

لم تُصدقْ سوزان أن الأحداث الغريبة التي عاشتها في الغرفة، يمكن أن تحدث في حياتها مُجدداً بصورة ربما تكون أكثر غرابة من ذي قبل. لم يخطر على بالها أبدا، أن مفاجأة غير متوقعة ستكون بانتظارها.

قبل لحظات كانت الأمور قد بدأت تعود إلى وضعها الطبيعي، حيث مشت سوزان وقلبها يقفز فرحا وأحست ان كل الأحداث التي مرت بها، كانت وهماً تلاشى إلى الأبد. قالت وهي تمشي تحت سماء مكتظة بالغيوم:

ـ أنا أبدأ من جديد ولن ألتفت إلى الماضي مرة اخرى. أحتاج فقط أن أعيد تلقين نفسي إنني قوية. رغم كل شيء أنا قوية. أشعر أن الكون يباركني وبإمكاني أن أستعيد فرحي، قوتي، أغنيتي الأولى. عليَّ أن أؤمن منذ اللحظة، ألّا وجود لشيء إسمه حدث عظيم سيغير حياتي.

وقفتْ تنظر إلى الأشياء من حولها. سقطتْ على رأسها قطرات من بقايا مطر الصباح فزادت لهفتها لبداية جديدة، ثم واصلت كأنها تذكرت شيئاً:

ـ يُمكن أن يكون في حياة أحدنا حدث عظيم، نجاحات، مفاجأت، حرمان، تجارب حب مهمة. ولكن ليس كل الناس يعيشون ذلك. أنا أعرف أشخاصاً كثيرين عاشوا حياة عادية جدا. كانوا يستيقظون عند الصباح، يتناولون إفطارهم ثم يذهبون إلى العمل. في المساء يعودون متعبين، ينامون، ولايهتمون حتى بما رأوه في أحلامهم، ثم يبدأون صباحا أخر بنفس الوتيرة، وهكذا حتى هرِموا وماتوا. لذلك سأكون من اللحظة، إمرأة عادية لاتحلم كثيرا ولا تنتظر شيئا.

قبل أن تستأنف سوزان حديثها، أغمضت عينيها وتخيلت انها تمشي في شارع تجاري مكتظ بالمتبضعين، ترتدي معطفا طويلا وقبعة جرسية، تُصغي إلى مقطوعة (لشوبان) ويتساقط ثلج خفيف من حولها. إقترح خيالها ان (أحمد) هو الذي يرافقها خلال المشي في هذا الشارع، فلم تكن مستعدة لقبول الفكرة، وأحست وهي تفكر بذلك بارتعاشة برد حقيقية، وعادت لتقول:

ـ ليس ثمة ما يبعث على القلق الآن. لقد فتحتُ الخزانة وتأكدتُ بنفسي من عدم وجود كيس أسود يحتوي ملابسي وأغراضي الخاصة. أما الطفلة التي كانت تجلس تحت النافذة والتي إعتقدتُ

انها (أنا)عندما كنتُ في الصف الأول الإبتدائي، فليس هناك أثر يدل على وجودها. ليس معي الآن وأنا أجتاز المسافة الفاصلة بين النافذة والباب الصغير، سوى فرح لانهائي يغمرني. ليس معي سوى خيالي الذي لم يتركني وحيدة. كم أنا سعيدة أن أحداً يقف إلى جانبي حتى لو كان ذلك خيالا.

تأكدتْ سوزان وهي تستذكر خيالها، ان سرب النوارس مازال يحلق في سماء شديدة الزرقة، ولم تكن لتنسى مراقبة السفينة التي تقترب من المرفأ.

عند شجرة (السدر) كانت الصدمة. حدث ما لم يكن في الحسبان.

شاهدت سوزان بوضوح الشريط الأحمر الذي رفعت به الطفلة شعرها. ذلك الشريط الذي أفزعها عندما شاهدته من النافذة سابقا. بدا الشريط الاحمرعالقا بين غصنين من شجرة السدر، وبقي متأرجحا على وشك أن يسقط على الارض أو تأخذه الريح بعيدا. جفلت، لم تكن قادرة على إبداء أي ردة فعل. ركضت هاربة إلى الداخل وعند اجتيازها الباب توقفت. عادت تركض مجدداً باتجاه الحديقة، ولكنها كانت مرعوبة ولم تجرؤ على الخروج مرة اخرى.

أخرجت فقط نصف جسدها من الباب المطل على الشجرة. عندها هبت رياح قوية وبدأ رذاذ خفيف ينزل. وعندما لم تشاهد سوزان الشريط على شجرة السدر، تشجعت من جديد، وأخرجت كامل جسدها هذه المرة.

إقتربت من الشجرة، لكن قدميها اللتين غاصتا في الطين، أعاقتا تقدم خطواتها قليلا. توقفت تنظر إذا كان بإمكانها مواصلة السيرنحو الشجرة التي صارت الآن أكثر قرباً. لم تعرف سوزان أن تلك النظرة العابرة إلى الارض هي صدمة أخرى مدوية.

شاهدت سوزان أثار أقدام صغيرة غُرزت في الطين. ثلاثة خطوات لأثارحذاء طفلة يبدو أنها مشت باتجاه السياج الخارجي للبيت. تتبعتْ من مكانها تلك الأثار فوجدتها تنتهي قبل برميل النفط الملاصق للسياج. تملكها شعور بالضياع وانتبهت فجأة إلى كونها وحيدة. لقد خذلها خيالها، وتخلى عنها سرب النوارس، غاب في السماء الممتدة بلا نهاية.

حتى السفينة التي بقيت تقترب، دفعتها أمواج غاضبة إلى عرض البحر. وسمعت سوزان لأول مرة اصوات البحارة والمسافرين وهم يستغيثون. بدت اصواتهم غير واضحة كأنها تأتي من زمن اخر، من مكان ما في هذا الكون الذي يبدو انه يبوح الآن بأسرار عظيمة دفعة واحدة. وأدركت سوزان انها كم كانت مخطئة عندما تصورت ان كل هذه الأحداث الغريبة قد انتهت. شعرت بحنين غريب إلى احمد، تمنت لو أن الريح تحمل صوته اليها، لو انها تلمح وجهه في غيمة عابرة. وعادت إليها فكرة الحدث العظيم الذي يغير كل شيء في حياتها. أمطرت السماء بغزارة فمحت كل أثر على الطين. ولم تجد سوزان شيئا تفعله سوى أن تجلس باكيةً تحت المطر.

(2)

تفقدت (فضيلة)سوزان فلم تجدها في غرفتها. بحثت عنها في غرفة الإستقبال والحمام والرواق والسطح، بحثت في مكان داخل البيت لكنها لم تعثر عليها. أحسَّت بقلق شديد. أين يمكن ان تذهب ابنتها في هذا الجو الماطر. أخبرت (صبر) عن اختفاء سوزان. دخلت عليه في غرفة الاستقبال، كان ممددا يدخن ويشاهد قناة (ناشيونال جوغرافيك)مستغرقا في متابعة فلم وثائقي عن أسرار معتقل غوانتانمو. قالت بصوت من شدة اللهاث بالكاد يُفهم:

ـ بتك مالها أثر، كلبت الدنيا عليها ماكو.

يعرف صبر أن فضيله تبالغ كثيرا عندما تصف شيئاً، ويمكن أن تجعل من تفاصيل صغيرة أمراً مهولا. لذلك لم يكترث، حتى انه لم يعدل جلسته أو يظهر على وجهه أي تعبير يدل انه يشاركها هذا القلق الذي سيطر عليها. قال لها ببرود:

ـ قابل وين راحت يعني؟

غضبت فضيلة من بروده، وتهيأت لعاصفة من الكلمات ترد بها. وقبل أن تنطق بكلمة واحدة، دخلت عليهما سوزان. بدت منكسرة، شاحبة، ملابسها مبللة، بلوزها يقطر ماءا وبيجامتها ناقعة بالطين حتى ركبتيها، كأنها قدغطست في بركة من الوحل. عندما رأتها فضيلة بهذا الحال، شهقت وخمشت خدها بأضافرها وعدل صبر جلسته بسرعة ولم يركز اين رمى السيجارة التي كانت

في يده. قام من مكانه مفزوعا واحتضنها، ولم يقدر ان يحبس دمعة نزلت على خده:

ـ شبيج بابا

لم تُجبْ. دخلت إلى غرفتها وأغلقت على نفسها بالمفتاح. أقسمت فضيله أن ابنتها جُنت وضاعت منها إلى الابد. جلست على الارض وتربعت، تضرب بيديها على رأسها وصدرها وتطلق صرخات تنادي بها على الأنبياء والائمة وأم البنين وأرواح الموتى من أقاربها. نادتهم بأسمائهم أن يحضروا جميعا، توسلت إليهم ان يفعلوا شيئا ويشاركوها في هذه المصيبة التي نزلت على رأسها. ولم يدري صبر كيف يتصرف. بدا مرتبكاً حائرا يقطع الممر ذهاباً ومجيئاً، وأحس انه يكتم صراخا مدويا واعتبر ذلك اليوم من أصعب الايام حياته.

(3)

في المساء وبعد أن هدأت فضيلة، إقترحت على صبر أن تأخذ سوزان إلى (سيد جاسم)قالت إنها متأكدة أن جنّياً، قد تلبس بها ولايوجد في هذا العالم شخص قادرعلى إخراجه سوى السيد. ثم سردت ل(صبر) حكايات كثيرة سمعتها من نسوة أُصيب أبناءهن أو بناتهن بنفس الحالة، وعجز أمهر الأطباء عن علاجهم. لكن سيد جاسم عالجهم وأحرق الجنّي الذي تلبس بهم. تضيف

فضيلة، إن السيد لايكتفي أحيانا بحرق نفس الجنّي الذي يدخل إلى جسد المريض بل يجبره من خلال التعذيب أن يعترف على جماعته من الجن الأخرين. فإذا عرف مكانهم هجم عليهم سيد جاسم وأحرقهم جميعا. لذلك تعتقد فضيلة أن مجرد ذكر اسم سيد جاسم فأن الجن يهربون فورًا، نظرًا لمعارك صعبة خاضها معهم، عاد منها منتصرا.

توقع صبر أن تلجأ فضيلة إلى هذا الحل، لكنه قدَّر ان الوقت غير مناسب للدخول في نقاش حول الشيوخ والسادة والجن وجدوى الذهاب اليهم. كما انه يعرف مسبقا ان فضيلة لن تقتنع بكلامه أبدا، لن تقتنع حتى لو تحدث إليها نبي، ستبقى مصرة على رأيها حتى لو جاءها كبير الجن وأخبرها انهم أبرياء ولم يدخلوا إلى جسد ابنتها. انه يعرف جيدا كم تكون فضيلة عنيدة، خصوصا في الأمور التي تتعلق بعقيدتها ومرضها وأحلامها التي تفسرها بطريقة لم تخطر على بال مفسري الأحلام جميعا. لذلك بقي صبر يبادلها نظرات باردة بينما أفكاره سارحة في مكان أخر.

كان يفكر(صبر) انه ربما كان مسؤولا عن الحال الذي وصلت إليه سوزان. لامَ نفسه كثيراعلى عدم اهتمامه بها في الفترة الاخيرة. فلم يجمع بينهما منذ زمن، حوار طويل كما كان يحدث سابقا. لم تعد صديقته المقربة التي يعرف عنها كل شيء ويحكي لها أدق التفاصيل حول السياسة والفن وحكايات الركاب الذين يستأجرونه. وانتبه أيضا انها لم تعد تطلب منه أن يقرأ لها شعرًا أو تسأله عن

تجربته العاطفية الغامضة. حاول أن يتذكر أخرمرة فعل ذلك، لكن يبدو انه مر وقت طويل فلم يتذكر.

***

لم تتوقف فضيلة عن الكلام حول سيد جاسم ومهاراته الخارقة، خصوصا انها رأت أن (صبر) لم يعلق بكلمة. لذلك تصورت ان اقتراحها قد راق له، وانه موافق على كل ماتقول. واصلت حديثها بحماس، وتطرقت إلى المزيد من الحكايات حول أشخاص أصيبوا بمس من الجن وبرئوا على يد السيد. لكنها أخبرت صبر أن هناك مشكلة في الموضوع وهي انها لم تذهب الى بيته أبدا، كل ماتعرفه انه يسكن في مدينة (الشعلة)قرب سوق النصر، وطلبت من صبر أن يتكفل بالباقي بصفته سائق تكسي، فانه بالتأكيد يعرف بغداد شبرًا شبرًا. قالت فضيله إنها ستحاول إقناع سوزان بالحسنى، فإذا لم تستجب، فإنها ستستعين بنسوة شديدات البأس، لحملها بالقوة الى بيت سيد جاسم:

ـ اذا مارضت، نجتفها ونحطها بسيارتك وناخذها.

بدأت عيون صبر تضيق وأوشك أن ينفجر في وجهها. أشعل سيجارة من أخرى وفرك وجهه بيده وتأفف كثيرا. قال لها والسعال يخنقه:

ـ كافي تره طلعت روحي.

فوجئت فضيله برده ولكنها لم تُبدِ أي رد فعل. قررت أن تمضي في خطتها مهما كانت النتائج.

قام صبر من مكانه، طرق الباب على سوزان فلم تفتح، كانت هذه هي المحاولة الثالثة من أجل الحديث معها. خنقه الحزن وأحس بأن حبلا طويلا قد لُف حول رقبته وانه فقد القدرة على التنفس. مشى نحو الباب الخارجي. فتحه وجلس على الرصيف. كان الجو باردا والغيم قد اختفى وغصت السماء بنجوم عكست لمعانها على سطوح الأبنية العالية.

في الشارع مر من أمامه رجل عجوز يحمل علّاقة ثقيلة يضعها على الأرض ثم يحملها بيده الأخرى. مرت أيضا امرأتان يتحدثان همسا وخلفهما طفل يمشي ويأكل (جبس ليز)، وكانت تمر بين حينٍ وأخر سيارات مسرعة. إنتبه صبر الى أطفال يلعبون قريبا منه، اختلفوا حول توزيع مراكز اللاعبين. لا أحد يرضى أن يكون (حارس مرمى) أو مدافع، كلهم يريدون أن يلعبوا مهاجمين ويسجلون أهدافاً. بقي يراقبهم وقد دخلوا في جدل حامي الوطيس على أمل ان يحسموا الموضوع. غير أن الأطفال الأقوياء أصروا أن يكونوا هم المهاجمون وإلّا خربوا اللعبة.

أما بقية الأطفال فيجب أن يقبلوا بأي مركز يسند اليهم. إرتفعت أصواتهم وكادت تقع بينهم معركة طاحنة، فحسم صاحب الكرة هذا الجدل. أخذ كرته وتركهم، قال بنبرة متسلطة:

ـ هم طوبتي وهم تردوني العب مدافع!!!!

مشى مزهوا بنفسه وهو يحمل الكرة على صدره، ولم يلتفت إلى

توسلات أصدقاءه الذين حلفوا له انهم سيمنحونه مركز المهاجم طوال عمره ولن يتصرفوا مرة أخرى تصرفا يجعله غاضبا. مع ذلك أصر على قراره، وعندما صار قريبا من بيته، التفت اليهم وشتم أمهاتهم جميعا.

ضحك صبر، وتذكر انه كم كان طيبا في طفولته. إذ أن أصدقاءه ورغم انه صاحب الكره لكنهم دائما كانوا يجعلونه مدافعا أو حارس مرمى، وأحيانا يقترح عليه طفل شرير الّا يلعب معهم أصلا أويخيره بين أن يكون حكماً أو معلقاً.

بدت لصبر ذكريات طفولته كبقعة معتمة أضاءتها مصابيح السيارات التي مرت سريعا. نظر إلى ظل رجل عابر يمشي مبتعداحتى اختفى في مكان غير مضاء من الشارع. تمنى صبر لو أنه اختفى في ذلك المكان المعتم. في تلك اللحظة كانت سوزان قريبة من اتخاذ قرارٍ مهم.

(4)

ـ مالذي يحصل لي؟؟ ليس عندي تفسير لمايجري في حياتي ولم أتخيل يوما ولا رأيت في أحلامي مارأيته اليوم. أنا الآن لاأشك لحظة ان ماشاهدته كان خيالا. أنا متاكدة ان كل شيء كان حقيقيا، وهذا مايرعبني. أنا تائهة.

ماكان أمام سوزان خيارات كثيرة وهي تطرح على نفسها هذه

الاسئلة. لقد عاشت صراعا مريرا في تلك اليلة، ويبست ملابسها المبللة على جسدها ولم تنم لحظة واحدة، وكانت أدنى حركة تحدث في غرفتها، تصيبها برعب شديد. كل شيء من حولها غامض وغير مفهوم. تتراءى لها صور النافذة، شجرة السدر، خزانة الملابس، الشريط الأحمر.

حاولت أن تهدأ قليلا وفكرتْ بأن المشكلة ليست في الأشياء من حولها بل فيها هي، بدليل أن الاخرين يعيشون بشكل طبيعي مع الاشياء نفسها. هاهو أبوها يخرج إلى الحديقة ثم إلى الشارع ويمر من أمام شجرة السدر، ولاتثير في نفسه شيئا. كما ان أمها تذهب إلى كل مكان في البيت ولا ترى نفسها طفلة تجلس تحت النافذة أو أغراضها وحاجياتها الخاصة في كيس كبير داخل الخزانة.

قالت سوزان بعد وقت طويل من الحديث إلى نفسها:

ـ لماذا لايكون ماشاهدته اليوم هو الحدث العظيم الذي أنتظره والذي توقعت حدوثه وهو الذي سيغير كل شيء في حياتي. نعم إنه هو.

قفزت من مكانها وهي تقول ذلك وأحست بارتياح كأنها تناولت شرابا دافئا وتابعت:

ـ سأفترض ان هذا هو الحدث العظيم. مالمطلوب مني الان؟؟ماهي الخطوة التالية؟ هل صرت مستبصرة، عرافة، هل اختارتني السماء لإنجاز مهمة معينة، هل عوضني الله عن خساراتي في الحياة، فصرت أرى مالا يراه الناس.

ـ عليَّ أن أتذكر الآن متى كانت تحصل لي تلك الاشياء الغريبة. يجب أن اركز على الإشارات والأعراض التي تحدث قبلها. أنا أفكر بشكل جيد ومنطقي، إذن أنا لست مجنونة ولكن كل المجانين يعتقدون انهم يفكرون بشكل طبيعي، مقتنعين تماما بعقولهم، بل لعل مشكلة المجنون، انه لايعرف أساساً انه مجنون.

دارتْ في رأس سوزان أفكار كثيرة حول مايمكن أن تقوم به لإنقاذ نفسها. بدت بعض الأفكار صعبة وغير منطقية وليست مضمونة النتائج. إستقرت أخيرا على فكرة تبدو في متناول يديها ولاتكلف الكثير من الوقت. قررت أن تبحث في الانترنت لعلها تعثر على شيء يشبه حالتها. فتحت جوالها على صفحة الكوكل الرئيسية، تأخرت وهي تفكر بالكلمات التي تمليها على محرك البحث لتحصل على نتائج جيدة:

ـ سأبدأ أولا بمواقع الطب النفسي، لالا، سأبحث عن تجارب تشبه تجربتي لأشخاص شاهدوا أشياء غامضة مختلفة، ولابد أن يكون ذلك لأشخاص من دول أوربا أو أمريكا لأنهم الوحيدون الذين لايخجلون من كتابة تجاربهم. نحن العرب ممثلون بارعون نخفي آحاسيسنا وتجاربنا الخاصة حتى لاينخدش وضعنا الإجتماعي أمام الناس، لذلك نبدو متشابهين جميعا، كلنا سعداء، أقوياء، مرهفوا الحس، آباءنا وامهاتنا مخلوقات استثنائية، أطفالنا متوقدوا الذكاء وسيصبحون كلهم في المستقبل أطباء وطيارين. لامشكلة في حياتنا أبدا.

دار محرك البحث كثيرا وقدم لها عشرات الصفحات والمواضيع، لكنها لم ترَ في النتائج شيئاً مهماً.

جربتْ تغيير الكلمات التي أدخلتها للبحث فلم تحصل على شيء جديد. جاءت النتائج عادية جدا، أغلبها عن بعض المدن التي تحتوي على أشباح يظهرون ليلا، أغرب حكايات المنتحرين، وبعض المعلومات الطبية عن الحدس والتخاطر. وجدت في البحث أيضا حكايات متفرقة لأشخاص عادوا من الموت وتحدثوا عن مشاهداتهم. الموضوع بعيد تقريبا عما تبحث عنه، مع ذلك دفعها فضولها لتقرأ سطورا قليلة من كل حكاية.

حكاية (كارا) فقط أكملتها سوزان حتى النهاية. لاتدري لماذا حصل ذلك ولكنها وجدت نفسها تنساب مع السطور حتى نهاية القصة. و(كارا) هي مواطنة فرنسية، تعمل ممرضة في أحد المستشفيات الكبرى، تعرضت لعملية اعتداء من لص أراد سرقة منزلها ودخلت في غيبوبة الموت.

قالت كارا: عام 1993 كنت في الخامسة والثلاثين من عمري.. أسكن في منزل بعيد عن الطريق الرئيسي.. وبعدما أطعمت قطط وكلاب المنطقة كعادتي، دخلت المنزل وفي المطبخ وجدت رجلا يقف أمام الفرن. عرفته. فهو رجل يسكن في المنطقة المجاورة وسمعته سيئة للغاية.. قلت لنفسي: ربما يريد اغتصابي وقتلي.. كان يحمل مسدسا وسكينا وبطارية.. إستللت سكين المطبخ من الدرج وهاجمته.. وهنا

لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك.. توقفت ذاكرتي عند الصورة التي تظهر فيها أكبر كمية من الدماء.. علمتُ بعد ذلك أن جاري سمع صرخاتي فنادى الشرطة فتم القبض عليه وأنا غارقة في دمائي).

تواصل كارا:

أثناء غيبوبتي أحسست أنني أسير بسرعة داخل نفق جميل. كان المكان حيا بمعنى الكلمة. الألوان غاية في الجاذبية وأوراق الأشجار خضراء للغاية والأزهار وردية اللون.. كان المنظر أمامي ثلاثي الأبعاد. ثم أتى إلي رجل يرتدي ثيابا بلون أبيض وأسود وله ذقن وشارب وشعر داكن اللون، مرحباً بي بشدة. لازمني فترة من الوقت.. قال لي نحن سعداء لأنك هنا.. لدينا لك الكثير من العمل لتقومي به. ثم ذهبنا لغرفة ليس بها سقف.. وجدت بها(سنترال) إتصالات قديم وبه خطوط لا تحصى.. وهناك سمعتُ صوت امرأة يأتي من أسفل تصلي لأجل ابنتها المريضة بالحمى.. وبعدها قال لي مرشدي: (نحن بحاجة إليك هنا) أخبرته أن أسرتي في حاجة إليَّ أيضاً.. وبعد برهة قال لي: (حسنا يمكنك أن تعودي، ولكن عليك أن تتكلمي!. لكن عندما تكلمتُ لم يصدقني أحد.

أحبّت سوزان كارا، وتمنت لو أن مصادفة تجمعها بها. ستقول لها إنها تصدق كل كلمة قالتها. فهي تعرف مرارة أن يُكذبك الناس في أشياء شاهدتها بعينك، بل مرارة ألّاتتكلم أصلا، وتكتم أسرارًا تمزق روحك مثل شفرات حادة. مع ذلك تبقى مرغماً على الصمت.

(5)

من بداية الفجر كانت فضيلة قد فتحت نوافذ البيت كافة، وانزلت الستائر على الأرض وأشعلت عند كل نافذة عودين من البخور. قبل ذلك رشت ماء الورد في الزوايا وخلف الأبواب وعند بداية الممر ونهايته، وكسرتْ ماعونين فرفوري غاليين على قلبها ودست خلف كل مرآة في البيت ورقتين أو اكثر من شجرة السدر. فعلت ذلك وهي تتمتم بكلمات وأوراد تغمض عينيها عندما ترددهن. وكانت تحمل طاسة من الحرمل تطوف بها في كل أرجاء البيت. تابع (صبر) حركات فضيلة ولم يستطع أن يسكت، قال لها:

ـ صبحتي علينا جنج الخماهو الكاهن.

رمقته بنظرة غير مبالية وهي تواصل مرددةً بعض الأدعية.

فعلت فضيله كل ذلك بناءًا على توصيات من جارتها (أم ابراهيم). إذ رغم إلحاح صبر على فضيلة ألّاتخبر أحدا بموضوع سوزان، لكنها لم تستطع كتمان الأمر. إنسلتْ من فراشها في ساعة متأخرة وبالكاد لبست عباءة قديمة ومشت على أطراف اصابعها حتى لايعلم صبر بخروجها. طرقت الباب على أم ابراهيم ليلا، فأستغربت مجيئها في هذا الوقت المتأخر. وعندما قصت عليها الحكاية كاملة وطلبت منها المساعدة في الوصول إلى عنوان سيد جاسم ليخرج الجن من جسد ابنتها، اتسعتْ عينا أم ابراهيم دهشة وعاتبتها بشدة:

ـ كيف يحصل كل هذا وأنا لا أعلم، إن منزلة سوزان عندي مثل منزلة بناتي بالضبط.

قالت ذلك وسحبتها من يدها ليتحدثا بشكل مفصل داخل البيت. عندما جلستا اقترحت عليها أن تقوم بتبخير البيت وفق خطوات حددتها بدقة وحذرتها من أي خطأ في تلك الخطوات، لأنه قد يأتي بنتائج عكسية لاتحمد عقباها. قالت إن الخطأ في هكذا أمور ربما يؤدي إلى جلب الجن بدل طرده خارجا.

بعد ذلك سردت ام ابراهيم لفضيلة ماتعرض له ابنها الصغير سعد في الليلة الأولى من زواجه. قالت إن ابنها تزوج عن قصة حب من فتاة بارعة الجمال تشبه (إنجي) بطلة مسلسل تابعته قديما. وكانت تقصد (نيرمين الفقي) في مسلسل (رد قلبي). تقول أم ابراهيم، إن سعد رأى عروسه كأنها سعلوه، شعرها طويل وعيونها حمراء ركضت خلفه تريد خنقه، فولى هاربا من الغرفة، ولم يملك الحاضرون صبرا فركضوا خلفه رجالا ونساءا وأطفالا. وانتهت الحكاية أن سيد جاسم أثبت لهم ان العروس لم يكن فيها شيء. كل القضية أن جنياً قد تلبس به وجعله يرى البنت بهذا المنظر البشع.

قالت أم ابراهيم إنه أحرق الجني في الحال، وعاد ابنها سليما ينظر إلى زوجته على انها (إنجي) في مسلسل رد قلبي. أصغت فضيله إلى قصة سعد ابن ام ابراهيم وقد زاد إعجابها بسيد جاسم. أخذت العنوان بورقة صغيرة وعند الباب طلبت فضيلة ان يبقى الموضوع طي الكتمان. وعدتها ام ابراهيم بحفظ السر، وأبدت

استعدادها للذهاب معها إلى بيت السيد. قالت إن عليهما أن يحجزا موعدا، لأن الناس من كل محافظات العراق يأتون إليه وقد يضطر بعضهم إلى المبيت في الشارع حتى يأتي دوره للدخول وإجراء الكشف.

غادرت فضيلةعائدة الى بيتها. كان وقت تشغيل مولدة السحب قد انتهى، مما أغرق البيوت والطرقات بظلام دامس. لامس قلبها إحساس بالوحشة، وذكّرها الظلام بحلم رأته قبل ثلاثة أيام. كانت تسير لوحدها في مدينة مظلمة، ساكنة، خالية من الناس. بقيت على هذا الحال تسير على غير هدى، حتى لاح لها خيال امرأة بعيدة اختفت خلف البيوت. أسرعت فضيلة في الحلم حتى تلحق بتلك المرأة، لكن أسرابا من الغربان ظهرت فجأة، وحلقت على ارتفاع منخفض. في الأثناء انقض عليها أحد الغربان مقتربا منها حتى أحست بالهواء الذي جلبته حركة جناحيه السريعة. عندها فزّت فضيلة، وفي زحمة انشغالها، نسيت الحلم.

الآن هي تفسر ذلك ان اخبارا سيئة ستأتيها تباعا لكن احدها قد حدث بالفعل وهو الغراب الذي هاجمها والذي يمثل حالة ابنتها سوزان وماجرى عليها.

لم يبقَ لفضيله سوى خطوات قليلة لتصل البيت. حاولت طرد هذه الأفكار من رأسها. رددت في سرها أدعية وصلوات كثيرة، وأعادت النظرإلى الورقة التي فيها عنوان سيد جاسم. تبدل إحساسها وبدت كمن عثر على كنز ثمين وسط صحراء قاحلة.

الفصل الخامس

(1)

وقتها كانت سوزان منشغلة بإعداد القهوة لنفسها، حين وصل إلى سمعها حديث من غرفة الضيوف بين أمها ومجموعة تبدو كبيرة من نساء الشارع. ما أثار اهتمامها في الموضوع هو طريقة حديثهن لبعضهن حيث جعل الأمر يبدو كجلسة سرية.

ورغم ان الباب كان مفتوحا، لكنها لم تستطع في البداية تمييز أصواتهن، فقد كن يتكلمن إلى فضيله بصوت خفيض يقترب من الهمس، والأغرب من ذلك ان امها كانت ترد بنفس نبرة اصواتهن، هامسة أيضا.

أثار الموضوع فضول سوزان واقتربت من الباب علّها تسمع شيئا مما يدور بينهن. إلتقطتْ بعض الكلمات التي ورد اسمها فيها لكن الموضوع لايبدو واضحا حتى الآن. تكلمتْ صاحبة صوت أجش لايمكنها ان تتحدث همسا، إضافة إلى انها كانت تجلس بعيدة عن فضيلة، لذلك اضطرت إلى رفع صوتها. قالت إنها تأثرت كثيرا عندما سمعت بحالة سوزان وان عليهم الّا يقلقوا، فقضية الجن

رائجة هذه الايام وهي تعرف أشخاصا كثيرين أصيبوا بلعنة الأرواح الشريرة ثم عالجهم متخصصون روحانيون وتماثلوا للشفاء.

تملّكت سوزان وهي تصغي إلى حديث المرأة، عاصفة من الغضب ولم تصدق ماتسمع، وتسائلت كيف عرفن بحالتها؟ وعن أي جن وأرواح شريرة تتحدث هذه المرأة!! وراحت الضنون تسيطر على تفكيرها وتسائلت مرة أخرى، هل أخبرتْ أمي جميع النساء بحالتي، مالذي أفعله الآن!!! لكن الحوار بين النساء وأمها أخذ شكلا أكثر وضوحاً، حيث اقترحت إحداهن أن تتبرع بحرزها المُجرب الذي تشده على زندها منذ عشرسنين، والذي كان له الأثر البالغ في أن زوجها عاد ينظر إليها كما لو أنها (هيفا وهبي)، بعد أن هجرها طويلا وصرح أمام إخوته وزوجاتهم انها تشبه وجه النعال.

اما الأخريات فتحدثن أيضا عن تجاربهن، وأبدين تعاطفا كبيرا مع حالة سوزان. وطعنت إحداهن بمقترح أم ابراهيم بأن الذهاب إلى سيد جاسم هو الحل. قالت إنه لايفهم شيئا وان عليهم اخذها إلى (ملا حمود)، صحيح انه بعيد في منطقة (الدبوني) بالكوت ولكنه الأكثر ضماناً للشفاء. لم تُكمل كلامها حتى اعترضت امرأة أخرى على الاقتراح وقالت: أنتِ لاتعرفين شيئا. لقد عُثر على جثة ملا حمود في العام الماضي قرب أحد المزارع القريبة من بيته.

الناس يتحدثون في الدبوني انه نام مع فتاة جاءت للعلاج فحملت منه. ولما كبرتْ بطنها، ولم تعد قادرة على إخفاء السر أكثر

من ذلك، أخبرت أمها وعرف إخوتها بالأمر فقتلوها فورا، وتسللوا في اليل إلى بيت ملا حمود وقتلوه.

لاحظت سوزان أن أمها لم تكن ترد، فهي لم تسمع صوتها بالرفض أو القبول حول اقتراحات عديدة قُدمت لها. وفي الحقيقة فإن فضيلة كانت في حال لايمكن تصوره بسبب انكشاف السر الذي ائتمنت عليه أم ابراهيم في ذلك المساء. لامت نفسها كثيرا، انها وضعت ثقتها بإمرأة لاتستحق، وبقيت تفكر بالعواقب الوخيمة التي ستصيبها لو عرف صبر بأن الجميع صار يعرف بحالة سوزان. لذلك لم تكن تسمع أياً من اقتراحات النسوة اللاتي تحدثن اليها.

عندما خرجت النسوة وغادرن إلى بيوتهن، وقفت سوزان أمام أمها. حاولت أن تقول لها كلمة لكنها لم تقدر، لم يطاوعها قلبها الذي غرق بحزن ثقيل، ولم تشعر في حياتها انها وحيدة كوحدتها هذا المساء.

إجتاح المكان الصمت. غطى الستائر والجدران ومقابض الأبواب وفتحات الرطوبة في السقوف. وأحست فضيله كما لو أن قدمها انزلقت من حافة جبل عظيم وهي تهوي إلى أودية صخرية سحيقة. بكت فضيلة كثيرا ثم نامت في وقت مبكر غير مكترثة بالحلقة التي تفوتها من المسلسل الخليجي (قابل للكسر). تركت المصباح مضاءا ونامت دون أن تنزع شيلتها، وهذا الأمران يحدثان لأول مرة في حياتها. غطت في نوم عميق ولم ترَ أي حلم في تلك اليلة.

(2)

مضتْ سبعة أيام حاولت سوزان فيها أن تعثر على إشارة تساعدها في التعرف على الأعراض التي تسبق تلك المشاهدات الغريبة التي حصلت لها. تابعت كل شيء من حولها بدقة وكانت تكتب في دفتر صغير كل التفاصيل مهما بدت صغيرة أو مهملة. سجلت مواعيد نومها واستيقاظها، راقبت إحاسيسها في مواقف مختلفة، إستمعت إلى أغانٍ قديمة وحديثة، بإيقاع سريع وهاديء، تلاوات من القرأن بأصوات مصريين وعراقيين وأتراك، مقاطع من الرثاء بالطريقة الجنوبية وموسيقى الجاز.

صعدت إلى السطح ليلا، وبقيت لأكثر من نصف ساعة في مخزن الأشياء القديمة. راقبت حزنها، فرحها، وكانت فور أن تصحوا من نومها تدوّن مارأته في الحلم. وخصصت أيضا وقتا للجلوس تحت النافذة. كانت تضع كرسيا وتجلس هناك صامتة لساعات، تراقب حركة الطيور والأشجاروتسمع من خلف الجدار أصوات الناس الذين يمرون من أمام البيت. كانت تقول لنفسها:

ـ إنهم يمرون الآن على سجيتهم ولايتوقعون طبعا، أن خلف هذا الجدار امرأة ترى أشياء غامضة وغريبة. وكم مشيتُ أنا خلال عمري وعبرت بيوتا وجدرانا كثيرة ولم ادري مالذي يحصل خلفها. ربما أكون قد مررتُ على شخص يتعذب أو يصلي أو يفكر مثلي، أن شخصا ما يمر خلف الجدار ولايعلم عن عذابه شيئا. في لحظة

واحدة يعيش مليارات البشر حالات مختلفة، في اللحظة نفسها يأتي الى هذه الحياة مواليد جدد ويرحل عنها موتى كثيرون، قد تبدأ قصة حب في نفس الوقت الذي يتفق فيه عاشقان على النهاية ويفترقان إلى الأبد.

في المساء تفتح سوزان الدفتر الصغيروتقرأ كل الملاحضات التي كتبتها. لم تكن تهمل أي شيء كتبته مهما بدا صغيرا. لكن ومع ذلك فإن كل الكلمات والمواقف التي سجلتها، لم تكن توحي بشيء يذكر أو يثير الاهتمام.

إستمرت الأيام في مرورها التقليدي حتى صباح يوم جمعة، عند الساعة السابعة وفي صباح شتائي قاسي البرودة، استيقظ صبر وفضيلة على صوت تحطم شيء كبير. مدوياً كان الصوت وتكرر لإكثر من ثلاث مرات. قفزا من فراشهما يتتبعان الصوت الذي بدا لهما قريبا، وانه ربما يأتي من داخل البيت. حدد صبر المكان، قال إنه من غرفة سوزان. ركض نحو الغرفة وفضيلة خلفه. فتح الباب بقوة فواجه صعوبة في دفعه، بدا وكأن شيئا ثقيلا قد وضع خلف الباب منعه ان يندفع بسهولة. دخل صبر وأصابه الذهول لرؤية المنظر. كانت أرضية الغرفة مليئة بقطع الزجاج المتكسر.

في البداية لم يعثر على سوزان لكن فضيلة شاهدتها تجلس متقرفصة وراء الباب. كان جسدها يرتجف وقد غطت وجهها بكفيها وعندما انحنت عليها تريد تطويقها بذراعيها، دفعتها سوزان بقوة حتى كادت تسقط فضيلة على ظهرها. كانت تصرخ في وجيهما:

ـ عوفوني اريد ابقى وحدي.

بعد نصف ساعة تقريبا نادت عليهما سوزان فحضرا يركضان، تحدثت:

ـ إنهم هناك، لقد كانوا يقفون خلف النافذة. ثلاثة رجال ضخام الجثة وجوههم طويلة بلحى بيضاء مشذبة، متشابهين تماما كأنهم رجل واحد. أحدهم يحمل قنديلا قديما غير مضاء، أما الرجلان الأخران فكانا يحملان مزاميرطويلة. حدقوا بي وطلبوا مني أن أفتح لهم. كنت واقفة في وسط الغرفة فتراجعتُ خطوات إلى الوراء مرعوبة. أردت أن أصرخ لكن صوتي اختفى. عندها بدأ الرجلان بالنفخ في المزامير. لاأستطيع ان أصف الصوت الذي كان يصلني عندما كانا ينفخان، لكن كل جسمي كان يرتعش كلما استمرا بالنفخ.

ـ بعد ذلك أرسل اليَّ صاحب القنديل إشارة أن افتح النافذة. لا أدري كيف فهمت انه يطلب ذلك، فلم يكن يصلني صوته بل هو لم يكن يتكلم اصلا. وعندما رفضت قاموا بتهشيم الزجاج وانصرفوا. ثم عاد صاحب القنديل وادخل رأسه عبر النافذة وقال انهم سيعودون مرة اخرى ليأخذوا الدكتور امجد جارهم. أنا أشعر ان صوت صاحب القنديل يتردد الآن في داخلي وتمتلىء به كل حواسي ولا أتصور انه سيغادرني يوما.

لم تقل فضيلة شيئا سوى:

ـ اسم الله يمه اسم الله....

بقيت تكررها حتى صارت تقولها همسا وتلاشت الكلمات بين شفتيها بعد ذلك.

إنتبه صبر إلى قطرات من الدم على شكل خط مستقيم من بداية النافذة التي تحطم زجاجها بشكل كامل حتى مكان جلوس سوزان خلف الباب. فسر الموضوع ان سوزان قامت بكسر زجاج النافذة بيديها وانها بالتأكيد قد أصيبت.

تقدم نحوها وأبعد جسد فضيله التي عادت لاحتضانها. عندها فوجيء صبر بأن سوزان لم تكن مصابة بأي جرح. تفقد رأسها، يديها، ملابسها، فلم يعثرعلى قطرة دم واحدة.

(3)

مد صبر يده إلى جيبه فوجد علبة سجائر(كلواز) فيها سيجارتين وعشرة آلاف دينار وبضعة أوراق نقدية صغيرة من فئة المائتين وخمسين دينارا، عندما عدهن وجدهن الفي دينار. تأكد صبر ان كل مايملكه الآن هو أثناعشر الف دينار وهذا المبلغ بالكاد يكفي لمصرف يوم واحد.

فكر بالمبلغ المدّخر للطواريء وهو أربعمائة الف دينار، لكنه كان يائسا من الحصول عليه. إذ تخبأه فضيلة في شيلة قديمة صرتها الف مرة ودفنتها في مكان مجهول، ولايمكن لاكبر فرق التنقيب في العالم ان تعثر عليه. تقول فضيله دوماً، إن هذا المبلغ يمكن صرفه

في أمرين فقط: الأول هو أن يصرف لإكمال مراسم دفنها أو دفن صبر، والثاني هو في حالة حصول مجاعة مروعة تفتك بالعراق، عندئذ يمكن أن نخرجه ونشتري به خبزا يابسا ننقعه بالماء ونأكله.

طيلة أسبوع، بقي صبر في البيت لم يخرج بالتاكسي بسبب غرق الشوارع وانقطاع أغلب الطرق التي صارت بفعل مياه الأمطار المتجمعة، بركاً وبحيرات مخيفة. إضافة إلى وضعه النفسي السيء وقلقه المتزايد على حالة سوزان وعجزه عن إيجاد حل لهذه المشكلة التي اقتحمت حياتهم بشكل مفاجيء. قرر صبر أن يغادر هذا الجو الكئيب ويخرج للعمل. كان الجو دافئا والشمس التي احتجبت لأيام، أشرقت على بغداد بكامل سطوعها.

فتح صبر باب السيارة، شغل المحرك وأخرج من جيب باب السائق خرقة زرقاء مسح بها الزجاج الامامي والخلفي ثم صعد وأغلق الباب برفق، وسارت السيارة مبتعدة عن بيته الذي أحس أنه صار جحيما لايطاق. لم تكن تفارقه صورة سوزان، بقيت تطالعه في مرآة السيارة الخلفية والجانبية، في صورة امرأة عبرت الشارع وحيدة، وفي أصوات مذيعات الاخبار في الراديو ويافطات مراكز التجميل.

فتح نافذة السيارة، فاجتاحت وجهه ريح باردة، تمنى لو أن هذه الريح تنفذ إلى أعماقه فتحمل تلك الصور بعيدا، ووجد نفسه يصغي إلى صوت بكاء قادم من خلف الدروب والبنايات المهجورة، بكاء من أزمنة اخرى منسية، ربما دموع حبسها من طفولته في الريف أو

خيبات سابقة لايعرف لها بداية أو تاريخاً. أغلق النافذة بعد أن رمى منها سيجارة أشعلها للتو، وغيّر اتجاهه صوب شارع أخر.

يعرف صبر أن السبت يوم عطلة، لهذا سيجد صعوبة في الحصول على من يستأجره، فلا موظفين ولا مراجعين ولا دوائر حكومية تفتح أبوابها اليوم. ستكون الشوارع فارغة تقريبا باستثناء عمال البناء وأصحاب المحلات البعيدة أوالذين يقصدون مستشفيات لحالات طارئة او لعيادة أقرباء أو أصدقاء يرقدون هناك. وعموما فإن صبر يعتقد بأن مهنة التكسي لم تعد كما السابق فأغلب الناس صار بإمكانهم مع الوضع الجديد للعراق، شراء سيارات خاصة يقضون بها أغلب مشاويرهم، إضافة إلى أن كثرة السيطرات والازدحامات التي يمضي فيها سائق الأجرة وقتا طويلا حتى يتمكن من توصيل الراكب إلى المكان المطلوب جعلت من المردود المالي الذي يحصل عليه قليلا.

إجتاز صبر شارع الغزالية الرئيسي، مرورا بالطريق الخدمي الذي ينتهي بتقاطع مدينة الشعلة. عند التلة الترابية المحاذية لمعمل الثلج القديم لوّح له عجوز تظهر عيونه فقط من يشماغ لفه على وجهه بشكل كامل. طلب من صبر أن يوصله إلى كراج العلاوي. إتفقا على الأجرة وما إن أغلق العجوز الباب حتى شرع يحكي لصبر عن معاناته مع أولاده الأربعة وقال إنه لو أنجب أربعة كلاب لكانوا أوفى منهم.

عند سيطرة مطار المثنى، انتقل العجوز إلى حكاية الملك فيصل الأول وكان العجوز من النوع الذي إذا حدثك يصرخ في أذنيك ويرفع إصبعه في وجهك ليؤكد مايقوله لك، حتى انه كاد يفقأ عين صبر أكثر من مرة بسبب ذلك. قال بعد أن ضرب على فخذه بحرقة، إن الإنكليز أذابوا الزرنيخ في قدح الشاي الذي قُدم للملك في أثناء علاجه في إحدى مستشفيات لندن، وان ذلك تم على يد ممرضة بريطانية. بعد ذلك أخذ يصرخ: إن الملك فيصل الأول لو بقي يحكمنا حتى اليوم لما كان هذا حالنا. شعر صبر بفرح غامر عندما اقتربوا من الكراج لأن هذه الماساة التاريخية ستنتهي. وعندما نزل الرجل العجوز من السيارة، وقبل أن يغلق الباب، مد رأسه وسأل صبر هل يعرف بنات الملك؟؟؟؟ فقال صبر إنها نهايتي، سيقص عليَّ الآن حكاية بنات الملك. لكن الرجل العجوز اكتفى بالقول:

ـ الأميرة عزة وراجحة ورئيفة... الله وياك

وأغلق الباب متجها إلى إحدى بوابات الكراج. فيما سار صبر يبحث عن راكب أخر واتجه إلى شارع عمارات الصالحية هذه المرة.

عند انتصاف النهار وأمام الطريق الذي يمر بمعارض البياع باتجاه منطقة (الشرطة الرابعة) نصبت قوة من الجيش مفرزة للتفتيش حول أرقام السيارات والأشخاص. حدث ازدحام كبير، وأخذ سائقان يشتمان بعضهما دون سبب واضح وانتشربشكل مفاجيء باعة

الجرائد والشاي وأقراص الأغاني والسكائر، ودقت امرأة أربعينية زجاج نافذة سيارة صبر. بدت من شكلها انها مجنونة تدور في الشوارع دون مأوى. لم يُطقْ صبر النظر اليها، أغمض عينيه لأنه رأى صورة سوزان في عينيّ تلك المرأة المشردة.

ـ هل يمكن أن ينتهي الحال بسوزان إلى مصير هذه المرأة!!!. هل سيأتي يوم تطرق فيه زجاج السيارات على سائقين يتضايقون من شكلها ورائحتها.

صمت لبرهة وتذكّر أحزانا قديمة لاعلاقة لها بالموضوع فقرر العودة الى البيت.

(4)

ما إن انعطفت سيارة صبر نحو الشارع الذي يسكن فيه، حتى أبصر من بعيد جمهرة كبيرة من الناس بالقرب من بيته، وبدل أن يسرع ليعرف مالذي جرى، وجد نفسه يضغط على دواسة(البريك) ويتوقف. لم يعرف كيف يتصرف وشردت عيناه في كل اتجاه ثم أصابهما غواش مفاجيء وصار يرى الناس الذين تجمعوا على صورة أشباح أو خيالات مرت عليه في حلم. ردد بشكل هستيري اسم سوزان ودارت في رأسه عشرات الإحتمالات وكان شبه متأكد أن مكروها قد أصابها. وأصابته موجة من الكآبه عندما مرت في مخيلته صورة المرأة المشردة التي طرقت عليه زجاج النافذة.

ولم يكن أمامه من خيار غير أن يسرع باتجاه بيته. لو بقي في مكانه سيتوقف قلبه وستقتله الضنون والهواجس. بدا له المشهد أكثر وضوحا عندما اقترب بسيارته شاقّاً طريقه بصعوبة وسط حشود من نساء يمشين بذهول مسرعات، ورجال يشكلون حلقات ويتحدثون إلى بعضهم بأصوات عالية، وكان هناك أطفال قصدوا كل شيء مرتفع، ليتمكنوا من مراقبة شيء لايعرفه صبر حتى الآن. تسور بعضهم جدران البيوت والبعض الأخر صعد الى سطح شاحنة متوقفة. أما من لم يجد له مكانا فإنه هرع إلى سطح بيته ليراقب من ارتفاع شاهق.

وتأكد صبر الآن أن الحدث لم يكن في بيته، إذ صار بإمكانه أن يرى باب بيته مغلقا والجموع تجتازه باتجاه بيتٍ أخر قريب. هدأ قليلا وأنزل زجاج النافذة وسأل امرأة من هول الصدمة تركت عباءتها مفتوحة وطفلها يركض خلفها عارياً ويبكي بهيستيريا.

قالت المراة:

ـ دكتور امجد انكتل.

ركن صبر سيارته وركض مع الناس. حدثه كثيرون بأكثر من رواية لكن الأغلب كان يقول، إن دكتور أمجد وفي فترة مناوبته ليلة امس في طواريء مستشفى اليرموك، جاءته حالة شاب ينزف بغزارة بعد أصابته بطلق ناري، وقد حمله مجموعة من إصدقاءه إلى ردهة الطواريء، وقبل أن يباشر الدكتور أمجد بمايمكن فعله في مثل

هذه الحالات، كان الشاب قد فارق الحياة. غضب أصدقاء الشاب وشتموا الدكتور وتقدم أحدهم إليه، ووجه إلى أنفه لكمات متوالية حتى أسقطه أرضا. بعد ذلك حضرت أم الشاب وإخوته. أطلقتْ صراخا طويلا من بداية شارع المستشفى حتى وصولها إلى الردهة، فيما راح أخوته الثلاثة يبحثون كالمجانين عن الدكتور أمجد.

حاول رجال الأمن والممرضون وبعض ذوي المرضى أن يتدخلوا لإنقاذ الدكتور لكن بعضهم وصل متأخرا، ونال البعض الاخر نصيبا من اللكمات والشتائم. وعلى كل حال، فإن إخوة الشاب قضوا على دكتور أمجد الذي مات من شدة الضرب والركل. تركوه جثة هامدة وغادروا على مرأى ومسمع من الجميع، وتأخر أحد اصدقاء الشاب عن جماعته، فبصق على جثة الدكتور والتحق بهم. وظنت امرأة عجوز مستلقية على سرير متهالك، ان السماء ستمطر ترابا احمر غضبا على الحادثة، لكن السماء في هذه الليلة بالذات كانت صافية وبقيت كذلك حتى صباح اليوم التالي.

هدأت أصوات الناس قليلا قرب بيت الدكتو، لكنهم لم ينصرفوا. أما الشيخ مهدي وكان رجل دين سكن الشارع حديثا، فقد طلب من بعض الشباب أن يأتوا بكراسي وقنفات ليجلس الرجال الذين تعبوا من الوقوف على أقدامهم، كما طلب من أخرين أن يعدوا الشاي للحاضرين بسرعة.

بدا الشيخ معتدا بنفسه، وقورا، هادئا يرتدي دشداشة بيضاء ويضع

كوفية على رأسه، وعلى الرغم من قصر قامته وأذنيه الطويلتين، إلّا أن بشرته البيضاء المشربة بحمرة ولحيته المشذبة بعناية وعويناته الطبية الانيقة، أكسبته حضورا لافتا جعل الناس تنسى قضية أذنيه. تجمع كثيرون حوله يرمقونه بنظرات الإعجاب ويسألونه عما وصل اليه حال المجتمع من تردٍ وانحطاط. قال له رجل يتوكأ على عكاز ويلهث بلا سبب:

ـ إن هذا هو أخر الزمان الذي قرأنا عنه في الكتب والمرويات القديمة. سيهلك الكثير من البشر بالقتل والموت المفاجيء والفيضانات والحرائق، وستكون بغداد في نهاية الامر تراباً.

واقترب رجل حاد الملامح على خده شامة، كبُرت بسرعة مذهلة حتى صارت على شكل حرف u، قال للشيخ:

ـ صدك شيخنا تره مضكوره (ويعني انها ذكرت قديما)

لم يرد عليهما الشيخ، واكتفى بهز رأسه بخشوع، وابتسم بحياء لافت.

مدح ثلاثة رجال الدكتور أمجد، قالوا كلاما متشابها كأنهم أمضوا اليل كله وهم يحفظون ماقالوه الآن، ونزلت من عيونهم في وقت واحد دموع ساخنة، ثم توقفوا عن البكاء في وقت واحد أيضا.

في هذه الأثناء انتبه الجميع إلى أن (بطو المخبل) يقترب من الشيخ، بدا انه يريد أن يقول شيئا:

ـ أني أعرف ليش خلوا دكتور امجد يموت، لأن أني احبه، وكل واحد أحبه لازم يموت.

قال ذلك بطو وفاضت عيناه بالدموع، فضحك في سره الرجل صاحب الشامة على شكل حرفu. أما بطو فركض مبتعدا وغاب بين البيوت والشوارع المجاورة.

وانتبه صبر إلى أنه يقف بعيدا عن الرجال الذين تجمعوا حول الشيخ مهدي، فقال في سره وهو يتابع حركاتهم وكلامهم:

ـ للبشر قدرة غريبة على تقمص الأدوار. عندما يكونون في جنازة يصبحون خاشعين ويتكلمون بصوت منخفض وتشعر أنهم ينظرون اليك بمحبة ويمتنون لك الخير، واذا بادلتهم نظرة عابرة، فأنهم ينفجرون بالبكاء. ثم نظر صبر إلى اثنين من الذين يبدو عليهما التأثر والحزن، وتذكر انه رآهما بالأمس يفتحان أبواب سيارة (موهافي) يمسحان زجاجها ويهزان مؤخرتيهما على أحد اغاني (رعد الناصري) ويصيحان: هله هله.

وكانت النسوة ينظرن إلى الشيخ من بعيد ويحاولن معرفة ماكان يقوله للرجال الذين أحاطوا به خاشعين. أما الطفل العاري الذي يبدو أن أمه تركته واختفت في الزحام، فقد هدأ الآن وجفت دموعه واقترب من الشيخ ينظر إليه، كأنه ينظر إلى مخلوق غريب ويعبث بأطراف دشداشته. وعندما سألته أمه بعد ذلك عن السبب قال لها:

ـ يشبه يوزر سيف بس أذانه طوال.

(5)

إضطربت سوزان عندما وصلها الخبر ولاح أمام ناظريها مشهد الرجال الثلاثة الذين طرقوا عليها نافذة الغرفة قبل أيام. أحست بقشعريرة وكأن عشرات من الإبرالصغيرة تخترق جسدها، ولم تكن متأكدة حول ماأخبرها به الرجال الثلاثة، هل قالوا إنهم سيأخذون الدكتور أمجد أم انه في خطرفقط. حاولت أن تتذكر لكنها لم تعثر في ذاكرتها على شيء سوى خوفها القديم والإشارات المبهمة للرجل العجوز صاحب القنديل. أحست بوخزة من عذاب الضمير على كونها ليست حزينة مثل الجميع على الجريمة المروعة التي حصلت للدكتور، فلم يكن يشغلها شيء سوى ما أخبرها به الرجال الثلاثة وأنه جاء صحيحا. قالت:

ـ إن الله وهبني سراً عظيما من أسرار الكون ينبغي أن أكون جديرة به. لامعنى للخوف. أنا لست خائفة، أنا فقط اشعر بالقلق فربما لن أحصل على إشارة أخرى وأضطر إلى أن أبدأ من جديد.

إستأنفت تقول:

ـ لقد تعبتُ من البدايات الجديدة فليس في مشواري بهذه الحياة سوى بدايات مقطوعة. حقا أنا أتوق لنهاية ما، مهما كان شكلها أو ما سأخسره فيها.

عاد اليها شعور بالضيق، فادركت انه ناتج من عدم اكتراثها بحادثة

الدكتور لكنها تجاهلت ذلك ودنت في هذا الحال من النافذة التي لاتحتاج عند فتحها إلى كل هذا الجهد. مع ذلك فتحتها بقوة كأنها تدفع باب قلعة حصينة. شعرت بالإرتياح وهي تكسر حاجزا نفسيا في علاقتها المرعبة مع نافذة غرفتها.

ألقت نظرة على الأفق الساكن وراقبت طيورا مهاجرة تحلق في السماء، وأصغت إلى أصوات الناس في الخارج وهم يتحدثون عن الجريمة، ثم استحضرت صورة الدكتور أمجد وهو الذي عالجها عندما دخلت في حالة إغماء. كان استحضار صورته اختبارا لمشاعرها، فقد حاولت من خلال ذلك أن تعثر في داخلهاعلى أي إحساس بالحزن، بالفقد، على إنسان أنقذها من الموت.

الحزن الذي يهزمنا في الحضور، ويهزمنا في الغياب. وحده لايلتزم بمواعيد ثابتة. فربما يغيب في اللحظة التي نحتاجه بها، ثم يعود في ساعة متأخرة. لايستأذن من أحد ولايقدم اعتذارا. لأنه ببساطة يملك دوما، النسخة الأصلية لمفاتيح أرواحنا.

في هذا الحال بدا الدكتور أمجد في مخيلتها كطائر حلق متاخرا، وهو يحاول اللحاق بسرب الطيور المهاجرة التي شاهدتها قبل قليل. لم تتوقع أن يداهمها سؤال على شكل جرح قديم:

ـ هل يتذكرني أحمد الآن؟؟؟

حاولت أن تقنع نفسها بأنه سؤال لامعنى له، ولكنه مثل هالات عظيمة من الضوء، بقي هذا السؤال الجرح، ينشطر إلى أسئلة كثيرة،

لم تستطع سوزان إيقافها. فتحت جوالها تبحث عن قصيدة الغريب لمحمود درويش. رددت مع صوته:

سألتُ نفسي: هل يرانا أم يرى

عَدَماً ويأسفُ للنهاية؟ كنت أعلم أنه

لن يفتح النَّعشَ المُغَطَّى بالبنفسج كي

يُودِّعَنا ويشكرنا ويهمسَ بالحقيقة.

أغلقت النافذة وأحست أنها تسدل الستار على فصل مهم في حياتها تمنت لو أنه لا يعود أبدا.

الفصل السادس

(1)

بعد مرور أقل من أسبوع، نسي الجميع حادثة الدكتور أمجد، وأقيم قرب بيته عرس صاخب، رقص فيه الناس على أنغام ال (دي جي) خصوصا الرجال الثلاثة الذين بكوا وسكتوا في وقت واحد أمام الشيخ مهدي. رقصوا حتى أذهلوا الحاضرين بهز رقابهم ومؤخراتهم لساعات طويلة، ثم انسحبوا وهم يأكلون لفات (شاورما الدجاج) في وقت واحد أيضا.

بعد ذلك عادت الحياة إلى طبيعتها ومر رجال كثيرون وهم يضحكون بصوت عال وتشاجرت امرأتان بالأيدي وعيرت إحداهما الأخرى بماضيها، واتخذ الأطفال باب بيت الدكتور هدفاً، يصوبون عليه الكرات والحجارة ويدقون جرس الباب بلا سبب ويهربون. ولم يبقَ أثر يدل على أن جريمة قد ارتُكبت هنا قبل أسبوع، أو أحاديثا عن الحياة الفانية وأخر الزمان المذكور في الكتب والمرويات القديمة الذي سيفسد فيه الناس جميعا.

حتى الشيخ مهدي انطفأ بلاسبب ذلك البريق الذي دعى الناس للتجمع حوله، وبدا غير مصدق ألّا أحد يهتم به. حاول أن يلفت أنظار الناس إليه مرة أخرى، لكن (ابو شوكت الحقنه)قطع عليه الطريق، وأخذ يطلق حوله الشائعات، وأخبر الناس إنه جاء هاربا من مدينة الديوانية بعد أن قتل زوجته إثر اكتشافه لخيانتها مع أخيه الذي هاجر فور اكتشاف الأمر إلى كندا. وأضاف ان اخيه هو الوحيد بين المهاجرين غير الشرعيين الذي غرق في البحر ولم يجدوا لجثته أثرا.

تلاقف الناس هذا الخبر وتحدث بعضهم إن الشيخ لم يقتلها بطريقة طبيعية، بل قام بتقطيعها بساطور كبيرإلى اجزاء صغيرة ثم دفنها بعد صلاة الفجر تحت أرضية المخزن. بعد مدة قالوا إنه نسي إصبعا من جثتها قرب فانوس قديم متروك في المخزن، وان هذا الإصبع انتشر في كل أرجاء البيت، فكان يُرى في غرفة النوم والرواق والحمام والحديقة. وفي أحلام الشيخ كان يأتي الإصبع يمشي على قدمين مثل البشر، يصعد إلى فراش الشيخ ويفقأ عينه كل ليلة فيستيقظ الشيخ بعين واحدة فزِعاً، ليجد عشرات الأصابع تحيط به من كل جانب. يقولون انه قرر إثر ذلك ألّا ينام أبدا، وكاد أن يُجن من كثرة السهر، فقرر في نهاية الأمر أن يبيع البيت ويهرب إلى هنا.

أما زوجة الدكتور أمجد، (الدكتورة شمم) فغادرت إلى أهلها في منطقة(بغداد الجديدة). جمعت ملابسها وأغراضها الخاصة

في حقيبتين كبيرتين واقفلت باب غرفتها في الطابق العلوي. ومن الشرفة المطلة على فناء البيت ألقت نظرة حزينة على الجدران والأثاث وأواني المطبخ ومفاتيح ذهبية على رف التلفزيون وكتاباً مفتوح على أريكة ولوحة لطفل ناج من الحرب ومزهرية لورود بيضاء ذابلة. قاومت دمعها ثم فتحت جوالها على المحادثة الأخيرة بينها وبين أمجد على الفايبر. كانت قبل مقتله بحوالي نصف ساعة.

ـ ماعرف ليش هالمرة مشتاقلج اكثر من كل مرة.

ـ ههه واني ماعرف ليش اعرفك جذاب واصدكك.

ـ لأن ثوووله.

ـ وين اكو دكتوره ثوله؟؟؟؟؟

ـ عادي، الحب اخطر درجات الثول.

عاودتْ قراءة المحادثة وتأملت كم يبدو البيت موحشا. نادت على أمجد وكررت النداء باسمه مرات عديدة، لكنها لم تقاوم دمعها هذه المرة فانفجرت باكية:

ـ لعلنا ندرك بشكل متأخر، انه كان يتوجب علينا تدريب القلب على وداع وهمي، غياب مفتعل، نسيان كاذب، قبل أن نواجه الوداع الأخير ذات يوم. ربما علينا في ذروة الحب أن نتقن مهارة النسيان. فلا مبرر لكل هذا الخوف مادمنا متأكدين تماما بأننا على موعد صارم مع الفقدان في النهاية.

وهي تنزل بخطى متعبة درجات السلم تلقت اتصالا من أمها،

تحدثا بهدوء في البداية لكن صوت (شمم) بدأ يعلو، حتى انفجرت باكية وهي تصرخ:

ـ ماما اني لحظة وحدة بعد ما ابقى بالعراق.

حرصت الدكتورة شمم أن تغادر بصمت. ولم تودع أحدا من شارع الشيشان سوى سوزان. صباحا سمعت فضيلة صوت طرق خفيف على الباب، وعندما فتحته فوجئت برؤية الدكتورة شمم. كانت انيقة ترتدي إيشاربا أسودا وتنورة قصيرة بنفس اللون، وتغطي عينيها بنظارة شمسية ماركة جوتشي، وكانت حزينة ولكنها هادئة تشبه فرنسية عائدة للتو من حفل تأبين كنسي. إحتضنتها فضيلة وبكت كما لو أن الميت ابنها. بكت شمم في أحضان فضيلة وأحست أن حزنا متراكما بدأ ينزل من قلبها. كانت تشمُ فضيلة فتحس كما لو أنها تناولت أقراصا مهدئة، وتمنت لو أنها تبقى في حضنها إلى الأبد.

إستغربت سوزان أن (شمم) تطلب توديعها، فلم يكن بينهما سوى أحاديث عابرة على الفيس بوك ولقاءات بسيطة في فترات متباعدة تبادلا فيها بعض الكتب والأحاديث العامة في شؤون عادية. لكن سوزان لم تبين لها ذلك، وحرصت أن تتصرف معها كصديقة حميمة، كما أخفت عنها حكاية الرجال الذين أخبروها بحادثة الدكتور أمجد قبل وقوعها. إنتظرت سوزان أن تتحدث الدكتورة شمم بشيء، غيركونها ستغادر الشارع إلى بيت أهلها،

لكن لم يكن في حديثها مايؤكد انها جاءت لأمر مهم. مرت بينهما فترات من الصمت جعلت سوزان تشعر بالإرتباك، لولا أن فضيلة قطعت هذا الصمت واخبرتها أن اخيها ينتظرها في الباب.

ودعتها سوزان وفتشت وهي تنظر في عينيها الزرقاوين الصافيتين عن إشارة تنتظرها بفارغ الصبر، عن نبؤة جديدة، عن أي خبر يخص المستقبل، لايعرفه غيرها.

ليس مهماً أن تأتي النبؤة القادمة مع أحد معين، الأهم أنها تأتي. وشعرت سوزان وهي تقول ذلك لنفسها، بأن قلبها بدأ يتغير، فلم تعد تفعل شيئا في حياتها سوى انتظار من سيخبرها عن إشارة جديدة حول حدث سيقع. ومع انها بقيت تبذل قصارى جهدها في الحصول على شيء يخص المستقبل، لكن خوفها لم يهدأ فهي لاتعرف طريقة أو شفرة تفتح لها بابا نحو هذا العالم المجهول، ومن الممكن جدا أن يكون مامر عليها مجرد مصادفة لن تتكرر في حياتها مرة أخرى.

في الخارج كان أخو الدكتورة شمم بانتظارها. حمل حقيبتيها في سيارة (جيب لاريدو)بعد أن أغلق الباب بسلسلة طويلة وكتب على جداره الخارجي(الدار للبيع) سارت السيارة مبتعدة، ولم يعد أحد يعرف عن أخبارالدكتورة شمم شيئا.

(2)

كاد صبر سوزان أن ينفد وهي تنتظر الإشارة القادمة اليها، وبدا انها قريبة من اليأس من الحصول على شيء جديد. كانت محبطة وهي تقلب دفتر ملاحضاتها الصغير الذي يكاد يمتليء. فلم تبقى فيه ورقة إلا وكانت محشوة بعشرات الملاحضات عن مواقف وأشخاص وتفاصيل. وتذكرت سوزان انها لم تعد ترى في نومها أحلاما. حاولت أن تتذكر أخر مرة رأت فيها حلماً، فلم يظهر في ذاكرتها سوى فراغ وأشياء مبعثرة يبدو أنها أفكارا قديمة وصورا غير واضحة لم تحرك فيها شيئا. إنتبهت فجأة إلى أن الرسالة التي كانت تأتيها من الرقم المجهول، قد اختفت ولم تصل منذ مدة. انتبهت ايضا ان الرسالة المجهولة لاتصل في ظرف طبيعي أبدا، إنها دائما تأتي في الاوقات التي تعيش فيها سوزان أوضاعا غريبة ومواقف غامضة. قالت سوزان وهي ترمي الدفتر الصغير على سريرها:

ـ لايمكن أن أحصل على إشارة وأنا حبيسة بين جدران غرفتي. كل العرافين الذين قرأت عنهم لم يكونوا في بداية سلوكهم لهذا الطريق يجلسون في بيوتهم وينتظرون وحيا من السماء. منذ الأزل اقترن العرافون بالسفر والترحال، فمثلما هم لاينتمون الى زمان فهم كذلك لايطيلون الإقامة في مكان. لذلك نراهم دائموا التنقل، غرباء، هيئتهم غريبة تشبه الدراويش الجوالين وحياتهم سرية لايعرف أحد عنها شيئا. يزورون مدناً غريبة وأماكن مهجورة

ويدخلون إلى المقابر ليلا، ثم انهم يلتقون بمختلف صنوف البشر. العقلاء والمجانين، الرؤوساء والخدم، المحبون للحياة والقريبون من الإنتحار..

ـ سأقصد أماكن أراها لأول مرة وأمشي في شوارع مكتضة بالناس، اتفرس في وجوه المارة، فربما لمحت في وجه أحدهم إشارة ما. ولكن لماذا يجب أن تاتي الإشارات عن طريق وجوه البشر حصرا، رغم انهم في الغالب يحملون قلوبا مليئة بالحقد والضغائن والحسد والرغبة في إيذاء بعضهم، والإشارات السماوية لاتأتي إلامن أكثر الأماكن قداسة في الكون. فكيف يمكن أن تمر عبر هذه الوجوه!!!

قطعت أسئلتها وأعجبتها فكرة البحث خارج البيت وسمعت موسيقى هادئة تتسلل إلى روحها. كانت في تلك اللحظة كزورق في عرض البحر على مسافة واحدة من الشاطيء والموج الذي بدأ يندفع نحوها.

(3)

عاش (صبر) أياماً مريرة وهو يفكر بماحصل، فقد قالت له سوزان يومها، إن الرجال الثلاثة الذين شاهدتهم من النافذة قالوا لها إنهم جاءوا لياخذوا الدكتور أمجد، وهو لايشك لحظة أنه سمع ذلك من سوزان، كما أنه يتذكر أن خيطاً من الدم يبدأ من النافذة وينتهي

عند الباب قد شاهده في غرفتها أيضا. المشكلة انه عندما سألها في وقت متأخر من ليلة أمس، قالت له ان كل شيء كان حقيقيا وانها تعاني منذ زمن من تلك المشاهدات الغريبة وانها بقيت تتكتم على الموضوع لأنها متاكدة ألّا أحداً في العالم سوف يصدقها.

بدا مشوشا وهو يسأل نفسه، كيف حصل ذلك وماهو تفسيره وكيف يصدق وهو المكافح ردحا طويلا من الزمن في الدفاع عن الأفكار الشيوعية التي لاتعترف بمثل هذه الاشياء، بل وتعُدها مجرد تُرهات وسخافة وعقداً نفسية. لكن الأمر الآن يبدو مختلفاً، إن القضية حصلت أمام عينه، لم يقرأ ذلك في كتاب حتى يقول إنه خيال مؤلف جامح ولا رواها له راكب من الذين تستهويهم هذه القصص.

مسح على صلعته ودخن كثيرا، وكاد يصدم السيارة لأكثر من مرة بسبب سرحانه في أفكار وهواجس تخص الموضوع. نزل بسيارته من جسر السنك، كان يوصل راكبا استأجره من البياع إلى ساحة الخلاني.

طوال الطريق ضل الراكب وهو رجل ضخم يشبه التابوت، يحدث صبر عن لعنة الزواج الثاني وانه تورط ورطة لاخلاص منها. وقال إنه تزوج على زوجته الأولى بسبب رائحة إبطها التي تحمّلها عشر سنوات، وجرب كل شيء لمعالجة الأمر، المعطرات والغسول والشب وطب الأعشاب، ولكن بلا فائدة. يقول إن رائحة إبطها تزداد حتى انه يكاد يتقيأ ويشعر بصداع يفتك برأسه عندما

يمارس معها الحب ثم يلقي نفسه على الفراش ميتا، كالذي دخل في اختبار قبول الطيارين. وعندما أصابه اليأس تزوج عليها، صحيح أن مشكلة الرائحة الكريهه قد انتهت، ولكنه غير قادر ان يصرف على عائلتين. طلب من صبر سيجاره، اشعلها ثم نفخ الدخان في وجه صبر قائلا:

ـ والله العظيم لو ادري هيج راح يصير بيه، جان متت بحرب ايران.

لكن صبر وهو يقترب من ساحة الخلاني لايتذكر انه سمع منه كلمة واحدة. بادره الرجل الذي يشبه التابوت بسؤال:

ـ هسه اني شسوي رحمه لوالديك؟؟؟

فقال صبر وهو ينظر إلى وجه الرجل لأول مرة:

ـ هو اني اعرف شسوي حتى اكلك انت شسوي.

(4)

هذا هو يوم السبت وهو اليوم الوحيد الذي تذهب فيه فضيلة إلى السوق لشراء مايحتاجه البيت لأسبوع كامل. سابقا كانت تقوم بالتسوق ثلاث مرات بالاسبوع لكنها وبسبب معاناتها من آلام شديدة في الظهر والقدمين، رأت أن الأمر شاقّا عليها واكتفت بيوم واحد فقط. هذه المرة ذهبت متأخرة عن وقتها المعتاد، كانت تنتظر أن يحل وقت الذروة، حيث يتواجد أكبر عدد ممكن من النسوة لتخبرهن بأمر تراه فضيلة هاماً جداً.

وبالفعل حصل لها ما أرادت، فقد اخبرت فضيله كل النسوة اللواتي تعرفهن بقضية ابنتها. حدثتهن ان سوزان قالت إن الدكتور أمجد سيقتل، وبينت لهن أن الجني الذي تلبّس بها، هو الذي أخبرها بذلك. فلطمت النسوة خدودهن من الدهشة واتسعت حداقتهن، واحطن بها من كل جانب حتى وجد بعض أصحاب العربات والمارة صعوبة في المشي من التجمع الذي تكاثر حولها، فطلبت منهن فضيلة أن يفسحن المجال للناس لكي تمر. واخذت تتحدث وهي تمسح بعباءتها عرقا غزيرا غطى وجهها.

وأرادت امرأة قصيرة أن تتكلم فعضّت لسانها من الإرتباك وسكتت. وقالت إحداهن وهي امرأة طويلة ليس عندها رموش ولا حواجب:

ـ إن هذا ليس الجني وانما هو نور قد منحه الله لها وهي الآن مكشوف عنها الحجاب.

وسردت المرأة الطويلة التي ليس عندها رموش ولا حواجب، قصة قريبتها (حدهن) التي أذهلت الناس في مدينة (الحلة) بقدرتها على معرفة المستقبل لكنها سرعان ما أصيبت بمرض احتار به الأطباء ولم يجدوا له علاجا. وخلاصته أن بقعاً حمراء انتشرت في جسدها، ثم تحولت بسرعة مذهلة إلى سوداء. بعد ذلك أخذ لحمها يتساقط. فكانت عائلتها تعثر باستمرار على قطع مختلفة الأحجام من لحمها، حتى صارت قريبة من الهيكل العظمي. في النهاية عثروا

عليها ميتة. كرهت فضيلة حديث هذه المرأة الخالية من الرموش والحواجب، واعتبرته فألاً سيئا، وقالت لها وهي مشمئزة:

ـ كش برد حيلج.

ورغم ان فضيلة حدثت الجميع بقضية ابنتها، لكنها لم تجرؤ أن تسأل سوزان سؤالا واحدا حول ماحصل. كانت تخشى أن يتسبب سؤالها بمشكلة جديدة وبالتالي ستعرض نفسها إلى لوم شديد من صبر الذي يتهمها دوماً بانها لاتحسن التصرف في المواقف الصعبة. أما فكرة أخذ سوزان إلى سيد جاسم ليخرج منها الجن الذي تلبّس بها، فقد بدت الآن فكرة صعبة ولايمكن القيام بها.

بقي على انتصاف النهار قرابة الساعة حين عادت فضيله من السوق، وقد وجدت ان هناك مُتسعا من الوقت للقيام بتنظيف البيت، وأحسّت وهي تشرع بكنس الممر أن آلام ظهرها تزداد واستغلت وجود ابنتها في الحديقة لتدخل إلى غرفتها الذي لم يدخلها أحد منذ حادثة الرجال الثلاثة. توجس قلبها وهي تفتح باب الغرفة وتحسرت عندما رأت فوضى عارمة تعم المكان. كان باب الخزانة مفتوحا والملابس التي بداخلها غير مرتبة، وكان التراب يغطي المرآة والمنضدة وخشب السرير، وعلى الأرضية قطع ناعمة من بقايا زجاج النافذة المكسور.

بدأت فضيله تكنس الغرفة وتردد نعيا عن الأم التي تبقى لوحدها بعد أن يهجرها الجميع. أضفى صوتها على المكان الساكن حزنا إضافيا، وامتزج مع التراب المتصاعد وصوت المكنسة المنساب

بإيقاع ثابت متقطع، فبدا المشهد وكأن غجرية تغني داخل كهف ضارب بالقدم. رفعت فضيلة شرشف السرير وسرعان ما أصابها الذهول وانقطع صوتها. بقيت تركز بصرها على شيء ما تحت السرير. زادت من انحناءها وهي مرتبكة، ومدت يدها فلم تصل، فاستعانت بالمكنسة لتسحب ثلاثة عصافير مذبوحة من تحت سرير سوزان.

أسرعت فضيلة في وضع العصافير في علّاقة سوداء جلبتها من المطبخ. قامت بإخفاءهن إلى جانب المبلغ الذي تدخره لجنازتها أو عندما تضرب البلد مجاعة مدمرة. في المساء أخبرت (صبر) بالأمر، فربط القضية فورا بخيط الدم الذي رآه في غرفة سوزان يوم الحادثة لكنه لم يخبر فضيلة بالأمر.

(5)

بدأ صبر ينظر بشكل مختلف إلى حالة سوزان بعد حادثة العصافير المذبوحة التي عثرت عليها فضيلة تحت سريرها، وحدّث نفسه وهو يفرك عينيه المتورمتين من الأرق الذي أصابه ليلة أمس، إن الأمر أكبر من مجرد عقد نفسية أو هلاوس بصرية تتوهمها. إن حالتها تزداد سوءا وغموضا ولاينبغي السكوت عن وضعها أكثر من ذلك. قرر أولاً أن يراقبها، ولم يخرج إلى العمل ذلك اليوم، وأخبر فضيلة انه مريض وسيبقى في البيت، فبادرت فضيلة إلى تجديد شكواها من ألم ظهرها، وقالت إنها ستموت

قريبا، وشدّدتْ عليه أن ينفذ جملة من الوصايا تخص جنازتها وطريقة دفنها. ضحك صبر وفكر أن يقبّلها ويقول لها عمرك طويل ولكنه رأى ألّا داعي لذلك.

حتى ساعة من متابعة دقيقة قام بها صبر لكل حركات سوزان لم يكن هناك شيء ملفت في تصرفاتها. المشكلة أنها في هذا اليوم بالذات كانت تتصرف بشكل طبيعي وقد لاحظ صبر انها متفائلة ونشطة وتغير مكانها بأستمرار وكانت تضع (هيدفونا) في أذنيها وتدندن، فعرف صبر انها عاودت الإستماع إلى مقطوعات شوبان التي تعشقها.

لم يدمْ الأمر طويلا، فسرعان ما تغيرت الصورة التي كانت عليها سوزان. نزعت (الهيدفون) عن أذنيها وشاهدها متوترة، تذرع غرفة الضيوف ذهابا ومجيئا، وبدا انها تبحث عن شيء ما. واحس صبر أنه على وشك أن يعثر على شيء مهم يساعده في فهم مايجري لها، وتردد فيما يمكن أن يتصرف في تلك اللحظة، هل يدخل ويسألها بشكل مباشر أم يستمر في مراقبتها من بعيد، فلعله يكتشف شيئا أكثر أهمية.

ما إن دخل صبر عليها في غرفة الضيوف، بادرت هي إلى سؤاله، إن كان قد قد عثر على رواية (فوضى الحواس) لإحلام مستغانمي. قالت له إنها وضعتها على رف التلفزيون وهي تحاول العثور عليها دون جدوى. خاب أمل صبر، وندم أنه حمّل الأمور أكثر مماتحتمل، لكنه بقي محدّقا بها، فاعادت عليه السؤال مرة اخرى.

حاول أن يتصرف بشكل طبيعي، حوّل بصره عنها باتجاه الباب، قال لها وهو يحك رقبته:

ـ إن أحلام مستغانمي ظهرت في حياتي بشكل متأخر، ولم يعد يليق بالعمر أن أقرأ روايات حالمة.

إقتربت منه سوزان ولم يتوقع أن ترتمي باحضانه باكية. أخبرته إنها تفتقد وجوده في حياتها وطلبت منه ألّايتركها لوحدها ابدا. ورغم انه حرص أن يظهر أمامها بمظهر الأب القوي المتماسك، لكنه كان يشعر في تلك اللحظة انه طفلها.

الفصل السابـع

(1)

كانت فضيلة في مزاج سيء عندما أخبرتها سوزان انها تريد الخروج لوحدها. والسبب في تعكر مزاجها هو ذاته منذ سنوات. إنها قرعة السلفة الجديدة التي شاركت بها فضيلة، وكالعادة ظهر اسمها الأخير في التسلسل ورافقها ذات النحس الذي يرافقها عند كل قرعة. قال لها صبر عندما علم بذلك:

ـ انتي لو تسوين سلفه وي نفسج، ويكتبون اسمج سبعين مره، ويسحبون القرعه هم تطلعين الأخيره.

ورغم خوفها، لم تُبدِ فضيله اعتراضا عندما أخبرتها سوزان انها تنوي قضاء بعض الوقت خارج البيت، وقدّرت أن ابنتها بحاجة إلى ذلك، للأبتعاد قليلا عن أجواء غرفتها الخانقة. إقترحت عليها فقط أن تقوم بمرافقتها إلى أي مكان تريد. وكم تمنت أن تقتنع سوزان بفكرة الذهاب إلى (سيد جاسم) ليخرج منها الجن الذي تلبس بها، بيد انها تعرف أن سوزان لايمكن أن توافق، وان ذلك ضربا من ضروب المستحيل.

رفضتْ سوزان فكرة أن يرافقها أحد، وأصرت أن تخرج بمفردها، وقالت إنها لن تذهب بعيدا، سوف تتمشى قليلا في داخل المنطقة وربما تزور بيت إحدى صديقاتها في حي (الرحمانية) الذي يفصله عن شارعهم مساحة خالية من أرض غير مسكونة كانت سابقا ساحة لتنفيذ أحكام الإعدام، وبعد التغيير الذي حصل في العراق أصبحت تلك الساحة ملعبا لممارسة كرة القدم. غير أن مدربا لفريق شعبي ادعى أن أرواح المعدومين تحوم حول المكان، وقد تسببت أكثر من مرة بإطفاء الأضواء التي كانت تضيء الساحة في حال إقامة المباريات ليلا. عندها خاف الأهالي ومنعوا أبناءهم من الذهاب إلى الساحة، ومنذ لك اليوم لم يأتي أحد للعب هنا، واصبح المكان مهجورا، فاضطرت السلطات إلى بناء جسر صغير للمشاة ليتجنب الناس المرور عبر الساحة وينسون الحديث عن أرواح المعدومين.

ساور فضيلة الكثير من القلق، لكنها حاولت أن تبقى هادئة وتتعامل مع الأمر بشكل طبيعي، وخطرت لها فكرة متابعتها من بعيد، وحين تذكرت ألم ظهرها وتسلسلها الأخير في السلفه، أصابها الغم واعرضت عن ذلك.

حرصت سوزان أن تغير ملابسها بسرعة، فهي تعرف جيدا أن قرارتها لاتصمد أمام أي شعور يداهمها فجأة، فمن الممكن جدا أن تلغي فكرة الخروج لأيِّ سبب مهما كان صغيرا، وقد حصل ذلك بالفعل في مرات سابقة، كما أن نظرة سريعة من النافذة كانت تكفي لتعرف أن السماء مليئة بالسحب الداكنة، وهو ما يثير في نفسها تشائما وانقباضا.

لاتدري سوزان وهي تمر أمام المرآة، لماذا تحاشت النظر فيها، ثمة شيء لم تستطع تفسيره ولكنها مع ذلك تجاهلته ومضت نحو خزانة الملابس. ألقت نظرة سريعة على ملابسها المبعثرة واخرجت بنطالا قماشيا اسودا وشالا بنفسجيا وتاملت قليلا، هل تكتفي بارتداء البلوز الابيض فقط، أم تلبس فوقه معطفا. لم تستطع معرفة إذا كان الجو يتطلب ذلك فالأبواب والنوافذ كانت مغلقة. وعندما استعانت بتطبيق الطقس الموجود على جوالها عرفت أن الجو ربما يكون باردا وأن درجات الحرارة ستبدأ بالانخفاض حتى مساء اليوم التالي. لذلك قررت أن ترتدي معطفا فوق البلوز الأبيض واختارت حقيبة بشكل عشوائي وضعتها على كتفها بسرعة. وعندما أكملت كل شيء فوجئت أن خوفها من النظر الى المرآة بدأ يكبر.

وقفت بمحاذاة النافذة تفصلها بضعة خطوات عن الباب الذي كان مواربا قليلا. ثمة إحساس خفي يحذرها من الإقتراب من المرآة. بدأ قلبها يخفق بسرعة وسرت ارتعاشة خفيفة إلى يدها جعلت الجوال يهتز قليلا. بادرت على الفور إلى وضعه داخل الحقيبة وفكرت ألّافائدة من البقاء واقفة في مكانها. تقدمت صوب المرآة. كانت تسمع نبضها يعلو وبدا لها أن الضوء في الغرفة صار خافتا. يالها من صدمة كبيرة. عندما نظرت سوزان على مسافة قريبة إلى المرآة. لم ترَ وجهها أبدا.

تراجعت خطوات قليلة إلى الخلف، فسقط الشال من رأسها، واحست انها فقدت السيطرة على جسدها الذي صار كله يرتجف.

ورغم انها قد عايشت مواقف غريبة واحداثا لايصدقها أحد، لكن ماتشاهده الآن يحدث لإول مرة في حياتها. غطت وجهها بيديها وعندما رفعتهما لم يتغير شيء. هي غير موجودة في المرآة، وليس هناك أي صورة لها ولا لجزء صغير منها. ورغم انها تقف أمام المرآة تماما، رغم أن الأشياء التي تقف خلفها كانت واضحة في المرآة. خزانة ملابسها ولوحة الحائط والسرير ودفتر ملاحضاتها كل هذه الأشياء موجودة وتعكس صورتها المرآة بشكل طبيعي. وحدها سوزان لاأثر لها في المرآة.

في البداية حرصت على عدم لمس المرآة، لكنها فيما بعد أرسلت اصبعها تتحسس الزجاج طولا وعرضا، فقد ضنت للحظة أن المرآة ربما تكون غير موجودة، لكن كل شيء كان حقيقيا حتى انها تشاهد الآن بوضوح خطوطا من تراب عالق رسمها اصبعها على المراة. تحدثت بكلمات غير مفهومة، أرادت أن تتأكد أن صوتها مازال موجودا، ولكن شيئا ما كان يمنعها من الصراخ، ربما إحساسها أن أشياء ستحصل بعد ذلك وان صورتها المختفية من المرآة هي البداية حسب.

مرت لحظات ثقيلة. بعدها بدأت سوزان تشاهد خيالا في المرآة، صور يصعب تمييزها لأناسٍ تعرفهم ولكن ملامحهم غير واضحة. ركزت أكثر فوجدت انهم غرباء لم يسبق لها أن رأتهم من قبل. كانوا متعبين، لحاهم طويلة ويرتدون جراويات والبعض الآخر يلبسون ملابس رياضية قديمة وشفقات عسكرية مرقطة،

وكانت وجوههم حزينة تشبه وجوه الموتى، ماعدا صاحب عربة يرتدي ملابس سوداء كاملة مرَّ من أمامهم يدفعها بصعوبة، وكان مبتهجا ويضحك بلا سبب.

دققتْ سوزان النظر وفتحت عينيها على اتساعهما، فلم تعرف أحدا منهم، وخيّل لها انها شاهدت (أحمد) بينهم لكنها لم تكن متأكدة. وحده المكان تعرفه. هذه ساحة الطيران، هناك يتجمع عمال البناء صباحا وينتظرون من يستأجرهم.

بينما هي تستغرق في استذكار المكان، تبدلت الصورة، وصار كل شيءغارق بالدماء، وشاهدت جثثا تحترق وأخرى مقطعة. وبدا أنها تسمع الآن بوضوح أصوات الصافرات لسيارات أسعاف وإطفاء تسير بسرعة. وسمعت أيضا صوت موسيقى غامضة تأتي قوية صاخبة ثم تنخفض، فيما بقي رأس لرجل مُسن يتدحرج على الأرض حتى استقر تحت إطار إحدى السيارات المحترقة. فكرت أن تفعل شيئا. مدت يديها إلى شاب ينزف تحت انقاض محل للاصباغ. حاولت مرارًا سحبه دون جدوى..

وما إن دخلت فضيلة غرفة سوزان حتى تلاشت فجأة كل تلك الصور وصارت سوزان تشاهد بوضوح صورتها في المرآة بشكل طبيعي. إختفى كل شيء ماعدا صوت الموسيقى الغامضة بقي يتردد في أعماقها، وبدت الموسيقى وهي ترتفع وكأنها صوت سماوي ينادي على سوزان من مكان بعيد منذ الازل.

(2)

فور أن أبصرت سوزان أمها تقدمت نحوها لاهثة وسألتها:

ـ تابعتي اخبار اليوم؟؟؟

ـ لا، صاير شي؟؟؟

ركضت سوزان نحو التلفزيون وفتحته. تناولت الريموت وبقيت تقلب بالقنوات. بدأت بقناة الحدث ثم سكاي نيوز ثم قناة العراقية وبقيت فضيله تتابع حركات سوزان وهي مذهولة. سألتها لماذا لم تخرج وماعلاقة الأخبار بالأمر وأسئلة كثيرة، لكن سوزان كانت شاردة الذهن ولم تدري أصلا أن أمها كانت تتحدث اليها.

كانت القنوات التي اختارتها سوزان تبث برامجها بشكل اعتيادي ولاجود للشريط الأحمر الذي يشير إلى وجود أخبار عاجلة على أسفل الشاشة. قبل أن تغادر فضيلة الغرفة، قالت لها سوزان:

ـ يمكن راح يصير انفجار بساحة الطيران.

لم تعرف فضيلة بمَ تجيب، عدلت شيلتها وقالت:

ـ اسم الله.

وغادرت فضيلة الغرفة بعد أن تأكدت أن سوزان عدلتْ عن فكرة الخروج من البيت هذا اليوم، وقالت لنفسها إنه من الأفضل ألّا تذهب لوحدها، فقلبها لن يرتاح أبدا وسوزان خارج البيت وهي

بهذه الحالة. في تلك اللحظة لم تعرف سوزان هل تسرعت بإخبار أمها عن ماشاهدته قبل قليل في المرآة. احست بالندم خصوصا وانه لم يحدث شيء حتى الآن يؤكد كلامها. مرت دقائق أمضتها سوزان تتصفح حسابها على الفيس البوك الذي أعادت فتحه مجددا. فكرتْ أن تنشر تنويها لأصدقاءها ليعرفوا انها فعّلت صفحتها، لكن حصل شيء مفاجيء. انتبهت إلى خبر عاجل على قناة (الحدث): (سيارة مفخخة تستهدف تجمعا للعمال في ساحة الطيران وسط بغداد).

خرجت فضيلة من الغرفة تبحث عن صبر، كان منشغلا بفحص زيت محرك السيارة، قالت له بعينين مرعوبتين:

ـ بتك سوزان تكول راح يصير انفجار بساحة الطيران.

مسح صبر آثار الزيت من على يده والتفت نحوها، إنتظرت أن يقول لها شيئا غير انه تكلم مع نفسه:

ـ لو صدقتْ سوزان هذه المرة فإن الأمر سيزداد تعقيدا.

فكر صبر أنه سيلجأ إلى خيارات وحلول جديدة، يعرف جيدا انها صعبة ولكنه مضطر اليها. ترك غطاء المحرك مفتوحا وتربع على الأرض يدخن ويرتب مع نفسه ماسيقوم به لوصدقت نبؤة سوزان. إستعرض كل الحلول التي يراها مناسبة، غير أن الحل الأخير الذي فكر به، جعله يبدو متوترا وتمنى ألّا يضطر اليه.

في داخل الغرفة قفزت سوزان من سريرها. دارتْ حول نفسها كمهرجي السيرك. مدت ذراعيها على طولهما كطائر يتيهأ للتحليق في سماء مفتوحة، واخذت تضحك ضحكات عالية وهي تلتقط

لنفسها عشرات (السيلفي). بدت كمن تناول جرعة كبيرة من الهروين لأول مرة. أثناء ذلك كانت تتوقف وتقلّب عبر الريموت بالقنوات التي بثت الخبر العاجل تباعا مع بعض اختلاف بسيط في كتابته، حسب سياسة القناة وتبعيتها وهوى مالكها. لم يكن ذلك يعني سوزان في شيء، كان الأهم بالنسبة لها هو ان تتأكد فقط من صدق نبؤتها.

وكانت كلما شاهدت الخبر على قناة، اقتربت من التلفزيون، حتى تكاد تلصق أنفها بالشاشة ثم تبدأ بأداء حركاتها البهلوانية من جديد. في تلك اللحظة كانت سوزان تقاوم صوتا مدمرا في داخلها، إحساس بالذنب، إحساس انها صارت امرأة أخرى، لم تعد تلك التي تبكي لفراق عاشقين في فلم أو موت بطلة تعاطفت معها في ختام رواية. إنها الآن تشاهد على الشاشة جثثا مقطعة ودماءا على الأرصفة ومبان جعلها العصف تطير في الهواء، ولكنها مع كل ذلك تحتفل وترقص لأن نبؤتها الجديدة تحققت.

كتمتْ صوت التلفزيون وفتحت باب غرفتها. مشت باتجاه السلم المؤدي إلى السطح. كانت تؤمن أن الأماكن المرتفعة تجعل المرء أكثر قربا من الله. لم تكن السماء صافية تماما لكنها ركزت على الجزء الشديد الزرقة، ماجعلها تهدأ قليلا. وشيئا فشيئا بدأ الصوت في داخلها ينخفض حتى تلاشى في الأفق البعيد، ولم تعد تسمع سوى همس مبهم يأتي من غيمة، تخيلت سوزان انها تشبهها. قالت وهي تتابع تلك الغيمة:

ـ أنا استحق فعلا أن أكون مختلفة عن هذا العالم، لقد أصبح لحياتي معنى لم أكن أعرفه من قبل.

ثم فكرت سوزان بقرار صعب، لم تكن لتجرؤ على مجرد التفكير به في سنوات ماضية، لكنها بفضل النبؤة الأخيرة وجدت في نفسها قوة تدفعها أن تهب أيامها الباقية وإلى الأبد لإشارات ونبؤات قادمة.

(3)

أنهى الشيخ مهدي صلاته بسرعه، ثم خرج من الباب الخلفي للمسجد، سالكا طريقا غير التي اعتاد أن يسلكها كل يوم وصولا إلى بيته. وقد لاحظ المصلون انه كان متوترا، أخطأ أكثر من مرة في قراءة الآيات التي تقرأ في الركعة الاولى والثانية لفريضة المغرب. ثم فجأة ودون انتظار أن يُكمل قاريء الدعاء الأوراد المستحبة المتعارف عليها بعد الإنتهاء من الصلاة، وضع مسبحته في جيب جبته وخرج مسرعا.

وفي الحقيقة هذه ليست المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك، فقد انتبه جميع مرتادي المسجد إلى تغيير مفاجيء في مواعيد حضور الشيخ لم يألفوه من قبل، لأنهم تعودوا أن يرونه أول الحاضرين الى المسجد وأخر من يغادر بعد أن يتأكد بنفسه من إطفاء المصابيح واعادة المصاحف إلى الرفوف، ثم إغلاق الباب الرئيسي والخلفي.

قبل أيام لم يحضر الشيخ مهدي إلى إمامة الصلاة أصلا. انتظروا أن يأتي وعندما طال انتظارهم، أرسلوا أطفالا يراقبون الطريق، لكن الاطفال اكدوا أنه مامن أثر يدل على أنه قادم. يأس الحاضرون من مجيئه وقالوا للحاج (عيدان)أن يتقدم ويصلي بهم باعتباره الأكبر سنا بينهم. لكن عيدان بقي ساكتا، لم يرفض ولم يقبل، ما اضطرهم أن يصلوا بشكل منفرد كما كانوا يصلون قبل تعيين الشيخ مهدي أماما. وبقي الحاج عيدان ساكتا يتفرس في الوجوه متحسرا على الفرصة التي ضاعت من يده وتمنى لو يطلبوا منه مرة أخرى أن يؤمهم للصلاة.

ورغم انه لم يمضي وقت طويل على تعيين الشيخ مهدي أماما للمسجد الصغير الوحيد في شارع الشيشان، لكنه استطاع خلال هذه الفترة القصيرة أن يكسب ود الجميع وأن يعيد بعض المُصلين الذين هجروا المسجد- إلى الحضور مرة أخرى. بذل جهودا كبيرة ودعا إلى اجتماع حاشد داخل المسجد، تولى التحضير له بنفسه وأعلن عبر مكبرات الصوت عن إقامة مأدبة عشاء تكفّل بها الشيخ وصرف لتهيأتها من جيبه الخاص لتشجيع الناس على حضور الإجتماع.

وجه دعوات إلى كل أهالي الشارع، الرواد القدامى وكبار السن ورابطتي تشجيع برشلونة والريال، والمراهقون ومتولي المسجد من الذين يرفعون الأذان أو المكلفون بمهمات التنظيف والحراسة. حتى الذين لم يحضروا مرة واحدة في حياتهم إلى المسجد او

الذين لم يكونوا يؤدون الصلاة اصلا، وجهت لهم دعوات لحضور الإجتماع. وتردد صبر في إجابة الدعوة لكن فضيلة وبخته بطريقتها، واخذت تلح عليه يوما كاملا. قالت له إنها حلمت به وكأن افاعٍ وثعابين ضخمة تلتف على رقبته وهو يستغيث ويطلب المساعدة دون أن يكترث لحاله احد. وختمت حديثها بأن هذا الحلم هو تحذير شديد اللهجة من أجل ان يذهب إلى المسجد وإلّا واجه مصيرا مجهولا.

أمر الشيخ مهدي القائمين على تجهيز الطعام أن يؤجلوا البدء بنصب المائدة حتى انتهاء الإجتماع، لأنه تلقى نصيحة من الحاج عيدان بذلك. همس في أذنيه:

ـ شيخنا الناس بس تاكل، تره نبقى بس انه وياك، كلها تروح لاهلها.

ألقى الشيخ مهدي كلمة قصيرة، رحب بهم وتحدث بشكل موجز عن دراسته للعلوم الدينية، ثم فتح باب النقاش للحاضرين ودعاهم أن يتحدثوا بصراحة عن أسباب عدم ادائهم للصلاة في المسجد.

تحدث بعضهم ان نفور الناس من المجيء للمسجد هو لسببين رئيسيين، الأول هو أن الناس تعرضت إلى صدمة عنيفة بسبب الحكايات التي يسمعونها عن تورط رجال دين كثيرين ومهمين بالسرقات والصفقات وإثراءهم على حساب الفقراء وعامة الناس.

قال (ابو شوكت الحقنه) موجها كلامه للشيخ مهدي الذي أصر أن يكون ضمن الحاضرين إلى الإجتماع:

ـ شيخنا انتم واحدكم جان حسرة عليه الخبزة، والناس جانت تتصدق عليكم. هسه كل واحد صاعدله سياره اخرموديل وياكل دليفري من ارقى المطاعم وساكن بقصرع الشط. ومن تجون يمنا تكولون الامام علي جان ياكل خبز شعير ولابس ثوب مشكك. لعد ليش متصيرون مثله!!!

قال ذلك ثم مسح إطار نظارته السميك، وغادر يشد رباط روبه ويهز بيده.

إنقسم الحاضرون حول الكلام الذي قاله (أبو شوكت). ولكن حتى المؤيدون لكلامه لم يكونوا ليجرئوا على تأييده علنا باستثناء رجلٍ علق بصوت مسموع:

ـ فدوه لحلكك.

أما الحاج عيدان فقد رف شاربه من شدة الغضب على ماقال أبو شوكت، وهمس لرجل كان قريبا منه بأن هذا الكلام حرام، وأن (أبوشوكت)سيصيبه إسهال شديد عقابا له. لكن الشيخ بقي هادئا يضحك، رغم فقدانه الكثير من الحماس الذي جاء به قبل أن يتحدث أبو شوكت.

تحدث بقية الحاضرين عن السبب الثاني، وقالوا إنه إمام المسجد السابق الشيخ صبّار، الذي كان يطيل في الصلاة ويختار أدعية طويلة. قالوا إن بعضهم كان يتعب فيغادر في منتصف الصلاة

هاربا، فيما سقط الحاج عيدان أكثر من مرة على وجهه بعدما انهكه البقاء واقفا لفترة طويلة ويداه مرفوعتان إلى السماء.

ليس هذا فحسب، بل إن خُطب إمام المسجد السابق الشيخ صبّار، كانت عبارة عن نقد قاسي وشتائم يوجهها إلى الجالسين، بدعوى أن كل مايحصل لهم هو مماكسبته أيديهم وانهم عصاة ومردة ومنافقون يستحقون أن تنزل عليهم الصواعق المحرقة من السماء فتفنيهم عن آخرهم، وان الملائكة تنتظر بفارغ الصبر أن يموتوا لتحرق وجوههم وتذيب الحديد المنصهر في مؤخراتهم.

ثم رفع يده سيد هاني صاحب الأسواق، فسمح له الشيخ بالحديث:

ـ شيخنا حتى ملامح شيخ صبار مو مال رجل دين، عبالك كصاب.

شعر الشيخ مهدي بشيء من الإرتياح وهو يسمع الناس تكيل التهم إلى سلفه الشيخ صبار، لكنه قاوم هذا الشعور بدعوى انه حرام، وانه يجب ان يحب لأخيه مايحبه لنفسه.

فاجأ الشيخ مهدي صبر بأنه يريد أن يسمع رأيه. فكرفي البداية أن يعتذر لكنه كان محرجا، لذلك تحدث بصوت مرتجف وخفيض، ثم لاحظ أن الجميع يصغون إليه باهتمام فرفع صوته، واختفت ارتجافة صوته. قال صبر:

ـ يمكن للناس أن يصلوا في بيوتهم، ولكن كيف يمكن لهم ذلك عندما يمرضوا!! هل بوسع أحد أن يشفى لمجرد أنه يقصد المسجد. أليس غريبا أن يسافر الناس ليتعالجوا في بلاد تعبد البقر، بعدما عجزوا عن إيجاد دواء في بلاد تعبد الله.

ـ أليس مثيرا للبكاء، ان البلد الذي اخترع الكتابة لايجد أبناؤه كتابا في مدراسهم. والمصيبة أن رواد المسجد القدامى وكبار الذين يدعون الى الله، والذين تسنموا مناصب رفيعة هم من تسبب بكل هذه المآسي للبلد. هل يعلم أولئك أنهم لم يسرقوا أموالا ائتمنوا عليها فحسب. لقد سرقوا الإيمان وطردوا الله من قلوب الناس.

ألقى صبرالمقطع الأخير من كلامه بصوت مختلف. كانت نبرته حزينة لكنها واثقة تشبه نبرة الجنرالات الذين يتحدثون بمرارة عن هزيمة تاريخية.

أصابت الدهشة وجوه الحاضرين وخيّم على المكان صمت رهيب، وتمنى بعضهم أن يصفق إعجابا، وهمس رجلان لبعضهما:

ـ هذا القزم طلع بي كل البلا.

وقاوم الشيخ مهدي بصعوبة أن يظهر على وجهه أي ملامح توحي انه قد تضايق من كلام صبر، واستعان بكل ما علق بذاكرته في فترة سابقة من حياته، قرأ فيها كتبا كثيرة عن لغة الجسد. حرص أن تبقى عيناه مفتوحتان وظهره منتصبا، لكنه لم يستطع أن يمنع قطرات من عرق بارد نزَّ من مسامات جبهته، وندم أنه أصر على حضور صبر إلى الإجتماع.

دوَّن الشيخ مهدي كل ماقيل في دفتر صغير وأمر الطهاة أن يصبّوا الطعام للناس وشكرهم على صراحتهم وحضورهم.

حاول الشيخ مهدي ومن اللحظة الأولى لليوم الذي تلا الإجتماع، أن يتجاوز الأخطاء التي وقع فيها سلفه. كانت صلاته سهلة يقرأ فيها السور القصار والأدعية المختصرة. أما فيما يخص الخطب، فكان لايخطب بهم إلا نادرا. وإذا صادف أنه القى خطبة عليهم فإنها تتحدث عن رحمة الله وغفرانه، وأن البشر يكفيهم جحيم الحياة والطغاة الذين نصبوا أنفسهم أنصاف آلهه، والحروب التي أكلت أبناءهم وأعمارهم لنهددهم بجحيم أخر. بل إن كثيرين من الذين يحذرون الناس من الجحيم، هم في الحقيقة السبب الوحيد الذي يدفعهم للوقوع فيه.

كما أن الشيخ مهدي دأب على تفقد الجميع والسؤال عن أحوالهم وحل مشاكلهم. حتى (أبو شوكت الحقنه)الذي كان يطلق الشائعات حول ثراء الشيخ مهدي وحياته الخاصةعندما سمع انه وقع من السلم وتعرض إلى رضوض في ساقه، دعا المصلين أن يذهبوا إلى عيادته، على أن يكون هو أولهم. وعندما رأى الحاج عيدان هذا الموقف، بكى بصوت عالٍ وزاد إعجابه بالشيخ مهدي.

ما كان أمام الشيخ مهدي من خيارات كثيرة في أن يجد طريقا لايصادفه فيه أحد. فمنطقة شارع الشيشان، ليس فيها سوى طريقين، وهما عادة لايمكن أن يخلوا من المارة. الأول هو الطريق المعتاد الذي يسلكه معظم الأهالي تقريبا. ويبدأ بخط مستقيم من بيت الشيخ مرورا بأسواق (سيد هاني) وصولا إلى المسجد الذي يمكن رؤية منارته الصغيرة عند اجتياز مولدة الكهرباء الكائنة في رأس الشارع.

أما الثاني فيسمى طريق الصّبات، وهو طريق يظهر للرائي من بعيد كأنه سور لمدينة أثرية قديمة. إذ تنتصب فيه الحواجز الكونكريتية الملاصقة لبعضها، كانت السلطات قد وضعتها مؤخرا بعد حديث عن استهداف المنطقة بصهريج مفخخ.

في هذا الطريق وبين الحواجز الكونكريتية العملاقة توجد فتحة تتسع لمرور شخص واحد فقط، قيل أن رساما مجهولا جاء ذات ليلة ورسم إلى جانب الفتحة لوحة تتضمن عربة يدفعها كهل مقطوع الرأس. وقتها اعتبره أهالي الشارع، فالا سيئا، وانهم مقبلون على أيام صعبة. وحده (أبو شوكت الحقنه) لم يتشائم من رؤية الرسم، وأخبر كل صادفه في ذلك اليوم:

ـ يعني شراح يصير بينا اكثر من الي صار. ألا ننكلب جلاب سود.

اختار الشيخ مهدي طريق الصبّات. سار بخطى سريعة وكان يلتفت خشية أن يراه أحد. وكان كلما قطع مسافة يخرج جواله ليجيب على مكالمة يجريها بسرعة ثم يغلق الخط.

عندما أصبح الشيخ مهدي قريبا من بيته، كان الظلام قد بدأ يهبط مغطيا الدروب والأبنية ووجوه المارة بظلام ثقيل. هكذا أحس الشيخ مهدي وهو يحث خطاه مسرعا.

كان الشارع خاليا تماما من الناس باستثناء بعض الاطفال الذين يلعبون الكرة، إضافة إلى بطو المخبل الذي بدا في مزاج سيء، يجلس في منتصف الشارع غير آبه بالسيارات التي كانت تمر

وتتوقف ثم تغير مسارها تجنبا لدهسه تحت اطاراتها. تنفس الشيخ مهدي عميقا عندما رأى باب بيته مغلقا. فتح الباب ودخل بسرعة ثم اغلقه بقوة وظهر على وجهه شيء من الإرتياح. لكن المكالمات التي كانت تأتيه على جواله لم تكن تتوقف.

لم يكدْ الشيخ مهدي يخلع جبته حتى سمع صوت طرق على الباب. خفق قلبه وعاود وجهه القلق الذي أصابه قبل أن يجد باب بيته مغلقا. تردد أن يفتح. ازاح ستارة النافذة وحاول أن يعرف عدد الأشخاص الذين يقفون خلف الباب، لكن الشارع كان غير مضاء ولم يتمكن من معرفة أيِّ شيء. إزداد الطرق على الباب ولم يجد الشيخ مهدي بُدًا من أن يقوم ليفتح. سارنحو الباب مرتبكا وكانت هواجس كثيرة تعذبه. وضع يده على الباب، وتردد وفكر أن يرجع إلى الداخل. وبعد لحظات قرر أن يفتح وليكن مايكون. أزاح قطعة الحديد الصغيرة (السرقي)بقوة كالذي يتيهأ لشيء بدا له متوقعا.

فوجيء الشيخ أن الشخص الذي كان يطرق الباب هو (صبر) والد سوزان. ومهما يكن الأمر مفاجئا للشيخ مهدي، أن يطرق عليه الباب (صبر)، فإنه رأى أنه أهون مما كان يتوقعه. لذلك بدا عليه الهدوء ودعاه للدخول إلى البيت.

جلس صبر صامتاً، يُحدق في السقف ويفرك قماش الكرسي بيده، وقد أضفت إضاءة الغرفة الخافتة على المكان شيئا من الوجوم. لاحظ صبر أن الشيخ مهدي يوجه نظرات قلقة إلى جهة

باب الغرفة المجاورة. ساد لدقائق صمت بينهما لم يكن يُسمع أثناء ذلك سوى صوت حّبات مسبحة الشيخ، التي كانت تنزل من بين أصابعه كقطرات ماء تنزل من مكان مرتفع. تحدث صبر انه جاء ليسأل عن حالة غريبة تمر بها ابنته (سوزان) وما إذا كان للدين رأي في ذلك.

قصَّ عليه الحكاية من بدايتها، وانتبه وهو يروي تفاصيل ماجرى على سوزان، أن الشيخ مهدي شارد الذهن ينظر اليه بعينين قلقتين كأنه ينتظر أمرا وشيك الحدوث. في الأثناء كان يسمع (صبر) صوتا غريبا يأتي من الغرفة المجاورة. لم يستطع تمييزه، فقد بدا له الصوت في البداية على أنه همهمات مبهمة، ثم بعد قليل أحس انها أشياء تتحرك أو تصطدم ببعضها. صبر لاحظ بشكل واضح أن الشيخ مهدي كان يتغير وجهه كلما كان الصوت يعلو، حتى اضطر إلى اختصار الكثير مما كان سيرويه عن حالة سوزان، واحس انه جاء في وقت غير مناسب وندم كثيرا وفكر أكثر من مرة أن ينهي الحكاية بأية طريقة ويغادر.

لم يمضي الكثير من الوقت، حتى نهض فجأة الشيخ مهدي من كرسيه وهو يسمع أن الصوت يقترب من الغرفة التي يجلسان بها. قام من مكانه متجها إلى الباب، وقبل أن يصل كان الوقت قد فات، فالباب قد انفتح بقوة، وأصدر الصوت صرخة مدوية جعلت صبردون أن يشعر يخفض رأسه بسرعة كالذي يتفادى رصاصة تصوب نحوه.

إقتحمت الغرفة إمرأة خمسينية العمر. شاحبة الوجه، محمرة العينين، عارية تماما، وبدا أن شعرها قد تساقط بشكل شبه كامل، وكان لها شارب كثيف وفي أعلى سرتها أثر لخيوط عملية جراحية قديمة، وكانت نحيفة وجلدها أصفر، تشبه جثة في ثلاجة موتى. دخلتْ عليهما وهي في حالة هياج شديد، صارخة بكلمات غير مفهومة.

فهم صبر عندما نظر إليها، انها تريد أن تحطم شيئا ما أو تهرب خارجا. فقد ظهر جليا من الهلع الذي ارتسم في عينيها أنها محبوسة منذ زمن طويل. ما إن دخلت حتى اعترضها الشيخ محاولا منعها، طوقها بذراعه وشدها بقوة إلى صدره، ودخل الإثنان في عراك بالايدي. قاومت المرأة بشراسة وتمكنت من دفعه فسقط على الأرض وتدحرجت عمامته مستقرة قرب أريكة.

جمد صبر في مكانه وهو يتابع مايجري بذهول، واحتار كيف يتصرف، ودخل المكان في فوضى مرعبة، فسرعان مانهض الشيخ مهدي وركض خلفها صارخا، وطلب من صبر ان يغادر المكان فورا، فيما راحت هي صوب باب المدخل الذي يؤدي إلى الخارج. ورغم أن الباب كان مفتوحا، وكان بوسعها الخروج، لكنها توقفت واخذت تضرب رأسها بالمقبض العلوي لباب المدخل الزجاجي. أمسك بها الشيخ مرة أخرى وفي هذا الحال بدت أقل مقاومة وبان عليها تعب جعلها من شدة اللهاث تتنفس بصعوبة، لكنها مع ذلك لم تكن تكف أبدا عن الصراخ.

واصل الشيخ الطلب من صبر أن يغادر بسرعة، بعد ان أخذ يجرها نحو كرسي قريب. أحس صبر انه في ورطة كبيرة وكل مافعله انه وقف متسمرا كتمثال وغطى وجهه بيديه متحاشيا النظر الى المرأة التي حاول الشيخ مرارا أن يغطيها بعباءته. بيد انها كانت ترفس بيديها ورجليها وترمي بالعباءة بعيدا. وتمكن الشيخ أخيرا أن يُجلس المرأة على الكرسي.

حاول مرة أخرى أن يلقي بعباءته على جسدها، إلّا انه خشي أن تعود إلى حالة الهياج السابقة فتركها عارية. فوجيء صبر انها غطّت على الفور في نوم عميق. أراد أن يقول شيئا فصرخ الشيخ مهدي به أن يخرج. غادر صبر صامتا بعد أن رأى الشيخ مهدي يجلس على الارض منكسرا، يبكي بمرارة.

وما إن خرج صبر من بيت الشيخ مهدي، حتى شعر أنه أفاق من كابوس. مسح عرقا غزيرا من وجهه ووقف يدخن صامتا. لايدري في تلك اللحظة لمَ تخيل روحه بعيدة عنه. حاول أن ينادي عليها، لكنه أحسها صارت أبعد مما يصل إليها صوته. بقي يمشي في بقعة مضيئة تحت مصابيح الشارع العالية، ثم نظربعيدا إلى مصابيح مكسورة ليس فيها ضوء، فأجل كلاما كان سيقوله لنفسه. إنتظر حتى يدخل في بقعة مظلمة، غارقة في العتمة، كأن رغبة دفينة في الإختباء بالظلام قد دهمت قلبه فجأة. قال وهو يطالع أعمدة الكهرباء مصفوفة إلى جانب بعضها مثل حراس متأهبين لخطر:

ـ كل الأشياء من حولنا تشبهنا، تشبه حياتنا. نحن ننظر احيانا

إلى الناس واقفين مثل أعمدة الكهرباء، يضحكون، يرددون الأغنيات، يحلمون بحياة مختلفة. ولكننا لاندري مالذي تحمله رؤوسهم، فربما كان الكثير منهم مكسورا مُعتما منذ زمن بعيد، وهو يكابرمنتصباعلى عمود خاوٍ فقط.

الفصل الثامن

(1)

تتراجع سوزان في اللحظات الأخيرة عندما يحين الوقت لتنفيذ قرارات تعتبرها مصيرية في حياتها. في الغالب تؤجل القرار بحجة أن هذا ليس الوقت المناسب أو تلغيه أصلا وتعتبره مغامرة غير محسوبة وغير مضمونة النتائج. لكنها هذه المرة تبدو أكثر حماسا فقد دارت الفكرة في رأسها طوال الأيام الماضية وقضتْ وقتا طويلا في حسابات معقدة ومراجعات دقيقة لأهم مايمكن أن ينتج عنها من أضرار محتملة.

قررت في النهاية أن فترة المساء هي الأنسب للقيام بهذه المغامرة المثيرة.

وإذ كان الوقت عصرا، فقد وجدتْ مُتسعاً لتفتح دفتر ملاحضاتها وتكتب على شكل نقاط توقعاتها لردود الفعل التي يمكن أن تتلقاها بعد هذه التجربة. كتبت سبعة نقاط، ولم تكن تتوقف وهي تنتقل من نقطة إلى أخرى، وكأن شيئا خفيا كان يُملي عليها.

عندما أكملت الكتابة، وجدت نفسها قد توقعت أسؤا شيء

يمكن أن يحصل لها. أضافت ثلاثة نقاط أخرى، لم تكن مقتنعة بها تماما، كتبتها فقط حتى لا تبدو التجربة سوداوية بالكامل.

عندما حل المساء، انسحبت سوزان إلى غرفتها بعد أن أنهت بشق الأنفس حديثا طويلا مع أمها. حكت لها فضيلة عن ذلك الرجل الغريب الذي جاء لوحده وسكن في بيت الدكتور أمجد. قالت إنه غريب الأطوار وليس له شكل محدد، والبعض يقول انه ليس واحدا وإنما مجموعة أشخاص متنكرين، يريدون أن يوهموا اهالي الشارع انهم رجل واحد. غادرت سوزان إلى غرفتها دون أن تعلق بكلمة واحدة على الموضوع، فما كان يعنيها في هذا المساء سوى الإعلان عن نفسها كعرّافةٍ تعلم المستقبل وتستطيع التنبؤ بالحوادث قبل وقوعها.

أخذت تجرب مسودات لِما ستنشره على صفحتها في الفيس بوك، وكتبت نسخاً تجريبية مفترضة، وحرصت أن تكون بأقل مايمكن من الكلمات. وكانت كلما كتبت شيئا مسحته على الفور وعادت لتكتب شيئا أخر. وهكذا حتى مضت نصف ساعة جعلتها تشعر بتوتر شديد.

أدركت في تلك اللحظة كم من الصعوبات واجهت الانسان ليتمكن من شرح مشاعره. كم جرب كلمات، وكم أضاف وحذف، وكم دفن من المشاعر لأنه لم يجد كلمات تشرحها. ربما هذا هو الذي جعل اللغة تبدو بكل هذا الكم الهائل من المفردات.

إن اللغة تمثل تأريخ المشاعر المكبوتة في دواخلنا. لذلك

نحن نتوارث الكبت عبر اللغة مثلما نتوارثه عبر التقاليد والحدود الصارمة التي يفرضها المجتمع علينا.

ـ لابد أن أكمل الأمر هذه الليلة، لن أنام أبدا دون أن أنتهي من ذلك.

هكذا أعادت تلقين نفسها انها قادرة. لم تقتنع تماما بالصيغة الأخيرة التي كتبتها، لكنها كانت مرهقة، وكان لابد من أن تنهي هذا الامر بأية طريقة. تأملت الكلمات قبل أن تضغط على ايقونة النشر. قالت لنفسها إنها تبالغ. فهذا الإضطراب الذي تشعر به الآن، يصلح أن يرافق امرأة تريد أن ترمي نفسها من ناطحة سحاب وليس امرأة تريد أن تنشر شيئا على الفيس بوك. ساعدتها هذه الفكرة وضغطت فورا على إيقونة النشر. بقيت علامة (جارِ التحميل) تظهر على شاشة الجوال. لحظات وظهر المنشور على صفحتها:

(المستقبل ليس شيئا غامضا. أنا أتنبأ بكل شيء يخص ماتخبأه الأيام)

حدقت سوزان بكل كلمة في المنشور، ثم تفقدت سجل الاصدقاء الموجودين الآن على الدردشة، فأشار العدد الموجود في أسفل الصفحة إلى وجود (400) صديق أونلاين. أرادت أن تتأكد انها ستحصل على عدد كبير من التفاعل، وانها قد اختارت توقيتا مناسبا. بعد ذلك خطرت لها فكرة فقامت على الفور بالدخول إلى خصوصية الصفحة وفتحت التعليقات على المنشور لغير الأصدقاء، بحيث يمكن لكل أحد يرى المنشور في العالم أن يُبدِ رأيه فيه.

أغلقت الصفحة ووصلت جوالها الذي بلغت نسبة الشحن فيه إلى ما دون الربع بكيبل الشاحن. فتحت التلفزيون على عدة قنوات إخبارية وقناتي أفلام وقناة للطبخ، فلم تعثرعلى شيء يستحق المتابعة. تذكرت أن قناة (دبي وان)تعرض في هذا الوقت فلما من أفلام الغموض.

قلبت بالريموت حتى وصلت إلى القناة، فكان الفلم الكوميدي على وشك أن ينتهي. وبعد فاصل قصير من الإعلان بدأ بالفعل فلم من انتاج سنة 2014. شدتها الأحداث منذ المشهد الأول فهي الشغوفة دوما بهذا النوع من الافلام. كانت قصة الفلم تدور حول رجل يستيقظ من النوم ليجد نفسه داخل مصعد غريب ومصاب بفقدان للذاكرةٍحيث انه لا يستطيع تذكر اسمه أو عائلته أو منزله. وعندما يتم فتح باب المصعد، يجد نفسه محاطًا بمجموعة من الاطفال يرحبون به في مكانه الجديد. حيث يبدو المكان محاطا بجدران ضخمة من الحجارة. أما الأطفال الذين معه، فإنهم لا يعلمون أيضًا كيف أتوا إلى هنا ولكنهم يعلمون أن وراء تلك الحجارة متاهة غريبة لا يعلم حلها أي واحد منهم. ثم سارتْ أحداث الفلم بوتيرة سريعةغامضة، لكن سوزان لم تتابع بقية الأحداث، فقد سرحت دون أن تدري بأفكارعن المستقبل وطموحات على شكل صور غير واضحة وتوقعات حول أصداء المنشور الذي تعمدت أن تتركه لبعض الوقت لينال صدى واسع من التفاعل والانتشار. بقيت تفكر، هل ترد على كل شخص ترك تعليقا أم تكتفي بأن

تعطي إعجابا وتشكر الجميع في النهاية. قالت ذلك ثم انتبهت إلى مرور أكثر من ساعة ونصف على منشورها، وهو وقت كافٍ تقريبا لوصوله إلى أكبر عدد ممكن من الأصدقاء على صفحتها.

فصلت الجوال عن الشاحن وضغطت على تطبيق (الفيس بوك) ثم أدخلت كلمة المرور. لم تكن تستخدم رموزا أو ارقاما معقدة كرمز للدخول. في الغالب تعتمد على عناوين روايات بكت أثناء قراءتها.

عرفت سوزان أنها مرتبكة عندما كتبت كلمة المرور بشكل خاطيء، واضطرت إلى إعادة كتابتها لأكثر من مرة. تخيلت نفسها مثل طالبة في الابتدائية حضرت لوحدها لاستلام نتيجة الإمتحان النهائي ومديرة المدرسة تنادي الآن على أسماء الناجحين ويكاد الدور يأتي على اسمها.

أخيرا تمكنت من الدخول إلى حسابها. أخذت نفسا عميقا وازاحت خصلات من شعرها إلى ما وراء أذنيها، بينما بقيت عيونها متصلبة، تترقب بدهشة مشوبة بخوف عميق نتائج هذه التجربة التي تعول عليها كثيرا لخطوات قادمة أكثر جراءة. فورا دخلت سوزان إلى المنشور، فكانت المفاجأة التي لم تحسب لها حسابا، مفاجأة لم تحتويها حتى النقاط السبعة المتشائمة التي كتبتها في دفتر ملاحظاتها. لم يكن هناك سوى ثلاثة تعليقات على المنشور، قرأتهن بسرعة:

(المستقبل ليس شيئا غامضا. أنا أتنبأ بكل شيء يخص ماتخبأه الأيام).

فيصل الملكي: شبيج سوزان، شاربه شي هههههه.

الطير المهاجر: ولا تكعد ام علي الشيباني.

اسامة اسامة: تخليني؟؟؟؟؟؟؟؟؟

أعادت قراءة التعليقات أكثر من مرة، حاولت أن تصمد، أن تبدو هادئة، أن تقول لنفسها إن هذا يحدث، وانها ربما اختارت توقيتا خاطئا للنشر، لكن شيئا دفينا تحطم في أعماقها ولاحت أمامها من جديد خيبات قديمة كان النسيان قد طواها. ولم تستطع مقاومة دمعة كانت تختبأ خلف الأمل الذي كان يشع من عينيها قبل قليل.

(2)

قبل أن تغلق سوزان حسابها، كانت خانة الماسنجر في أعلى الصفحة تشير إلى وجود رسالة. لعلها إحدى صديقاتها وهي كانت في مزاج لايسمح لها بالرد أو اجترار أحاديث مكررة عن تأخرها بالزواج أو عدم حصولها على تعيين حكومي. وربما كان أحد الذين سخروا منها في التعليقات، وهو يكتب اليها الآن ليسخر منها مجددا. هكذا توقعت سوزان. لكن الرسالة لم تكن كذلك.

حين أردات فتحها، طلب الفيس منها موافقة مسبقة، وهذا يعني

أن المرسل لم يكن من أصدقاءها، وهي خاصية جديدة استحدثها الموقع كإجراء احترازي لحماية مستخدميه من خطر القرصنة أو التورط بفيروسات ضارة.

دفعتها رغبة خفية لمعرفة المرسل، فضغطت على إيقونة الموافقة. بالفعل لم يكن المرسل من أصدقاءها، كانت رسالة غامضة من كلمتين، وبدا أن صاحبها اختارهما بعناية لإثبات شيء ما. ولاتدري سوزان عن السبب الذي جعل اهتمامها منصبا على معرفة المرسل. ثمة شيء مبهم جعلها لاتركز على مضمون الرسالة بقدر تلهفها لمعرفة صاحبها. ربما لأن المرسل استخدم اسما مستعارا، لامس حلما رأته سوزان يبتعد. كان اسمه (حارس النبؤات)

ضغطت على الإسم لتتعرف من خلال مشاهدة صفحته الشخصية على معلومات أكثر. لكن القصة بدت تأخذ شكلا أكثر غموضا. فقد بدا انه لم يكتب أيَّ معلومات عن نفسه. حتى خانة المعلومات الأساسية التقليدية كانت فارغة. ليس هناك شيء عن مواليده وعمله واهتماماته أو في مدينة يسكن. كما انه لم يسجل إعجابا بصفحة عامة أو فلم أو فنان مشهور. الأغرب انه لم ينشر كلمة واحدة أو يبد إعجابا أوتعليقا على منشور أخر. ولم يكن له صديق واحد على صفحته.

دار في رأس سوزان انه ربما كان شخصا تعرفه، وانه ربما لجأ

إلى صفحة وهمية أنشأها الآن لغرض معين. فكرت أن ذلك يمكن اكتشافه بسهولة من خلال تاريخ الإنضمام إلى الفيس بوك، وهو شيء لايمكن إخفاؤه. ومع نزولها إلى المكان المخصص لتاريخ الإنضمام إلى الفيس بوك، حدث شيء زاد الأمور تعقيدا.

تبين أن هذه الصفحة تم انشاؤها قبل أربع سنوات، وهذا يعني انه فعلا شخص مجهول، واستبعدت على الفور فكرة أن يكون شخصا تعرفه مُتخفٍ خلف صفحة وهمية واسم مستعار.

مالذي يجري؟؟؟اطلقت سوزان زفرة يائسة ثم بلعت ريقها واعترتها أحاسيس مجهولة تشبه الذي ينزل عبر سلم طويل إلى قبو غارق بالظلام.

سبق أن تعرضت سوزان إلى مواقف كثيرة تشبه هذا الموقف. إذ يحدث باستمرار تقريبا، أن اشخاصا مجهولين يرسلون رسائل على الماسنجر لغرض التعارف، لكن الأمر يبدو هذه المرة مختلفا. فالمرسل مجهول لم تعرف رغم بحثها الدقيق في صفحته، أيَّ شيء عنه. إضافة إلى أن موضوع الرسالة جاء مطابقا تماما لمنشورها الذي تسببت ردود الأفعال عليه بخيبة كبيرة لها. كانت الرسالة من كلمتين (أين الدليل؟؟؟)

لم تتردد أن تجيب على الرسالة. تأكدت فقط من وقت وجوده الآن على الماسنجر، فأشارت اللوحة العلوية لصفحته، انه كان موجودا قبل دقيقتين. وهذا يعني انه مازال متصلا من فترة قريبة.

بيد أنها أخذت بعين الإعتبار أن يكون جوابها مفتوحا، يسمح بأكثر من مجرد إجابة عادية. إتقد في عينيها فضول دفعها للبحث معه عن حوار طويل، لذلك ردت:

ـ الدليل على ماذا؟؟؟؟

أرسلت الجواب وبقيت تنتظر أن تظهر لها علامة السهمين الصغيرين التي تدل على أنه قرأ جوابها. لكن ذلك لم يحدث، فقد بقيت الرسالة دون أية علامة، رغم تأكدها من وجوده. فقد ظهر في أعلى صفحته (متصل الآن).

مرت الدقائق ثقيلة، وشعرت سوزان عندئذ باليأس من الحصول على جواب، وقالت انه ربما كان شيئا عابرا، وانها حمّلت الأمور أكثر مما تحتمل. وفي تلك اللحظة اليائسة، انتبهت إلى شيء جعل عينيها تشعان بأمل جديد. كانت إشارة في الماسنجر تقول: حارس النبؤات (يكتب الآن) مايعني انه يكتب جوابا على رسالتها. أبعدت في ذلك الحال كل فكرة تؤدي إلى توقع معين. قالت إنها بحاجة إلى مفاجأة. فيما استمرت الإشارة إلى انه (يكتب الآن) بالظهور، وبدا انه يكتب رسالة طويلة.

أوشك صبرها أن ينفد، وهي تترقب وصول الجواب، لكن هذا الترقب انقطع فجأة مع سماعها صوت طرق قوي على الباب.

نادت عليها فضيلة أن تفتح. كانت الساعة تقترب من العاشرة، وليس من عادتهم أن يستقبلوا ضيوفاً في هذا الوقت. وفيما استمر

الطرق على الباب متصلا هذه المرة، لم تجد سوزان بُدا من أن تترك الجوال وتخرج من غرفتها.

كانت فضيلة ممددة، بالكاد اعتدلت في جلستها، واخبرت سوزان انها تعاني من ألم شديد في ظهرها تمنعها من الخروج، وان اباها عاد متعبا ونام فور وصوله إلى البيت.

توجهت سوزان نحو الباب، كانت تمشي بخطوات بطيئة وتعدل شالا خفيفا وضعته على شعرها. ومع سماع الطارق لوقع أقدام سوزان وهي تقترب، توقف عن الطرق.

قبل أن تفتح، رفعت سوزان قطعة القماش التي تغطي فتحة الباب. تفاجأت وهي ترى أن من يقف خلف الباب هو شخص غريب لم يسبق لها أن رأته من قبل. حرص هو ألّاينظر في عينيّ سوزان. أدار الرجل الغريب وجهه في ناحية أخرى. ضاقت حدقتاه قليلا، وأرسل نظرة كئيبة إلى البيوت البعيدة وسلّم على سوزان بصوت خافت. قال لها إنه يريد التحدث إلى صبر في أمر هام. بدا صوته لها وقورا ونبرته جادة لكنها ودودة. إنتظرت سوزان أن يقول لها عن اسمه، لكنه لم يُضفْ شيئا وساد صمت، سمع الإثنان خلاله صوت عربة تزمجر إطارتها الحديدية على إسفلت الشارع المتهالك، ورصاصة بعيدة تلاشت في مكان ما من السماء، وعواء كلاب يأتي من خلف البيوت. أدار الرجل الغريب وجهه باتجاه سوزان وتحاشى مرة أخرى ان ينظر في عينيها. بدا متأهبا لقول شيء

ما، لكن صوتا سبقه إلى الكلام، أجفلت سوزان عندما سمعته. كان صوت صبر:

ـ أهلا شيخ مهدي.

تراجعت سوزان خطوات إلى يسار الباب وفسحت المجال لأبيها الذي سبقه الرجل إلى قول كلمة لم تفهمها سوزان:

ـ ماعرف شلون أعتذر منك.

تكلف صبر ابتسامة باردة، وأمسك يد الشيخ ودعاه فورا للدخول إلى البيت. لكن شيخ مهدي تردد وحاول أن يعتذر بأن الوقت متأخر وأنه سيكتفي بحديث عابر على الباب وينصرف. لكن صبر كان قد سحبه إلى الداخل واجتاز الإثنان مسافة قريبة قبل دخولهما إلى غرفة الضيوف.

مشى الشيخ مطرق الرأس وشفتاه تتمتمان بكلمات مبهمة. أما سوزان فقد تسمّرت في مكانها مثل حائط، وارتسم في عينيها هلع مفاجيء جعلها غير مصدقة لِما تراه.

فعندما سار أبوها والشيخ مبتعدان، لم تكن ترَ رجلا يمشي إلى جانب ابيها. كانت ترى بوضوح، أن جثة مكفنة بقماش أبيض قديم، وعليها من جهة الظهر دم يابس تسير ملاصقة لصبر. ورغم أن سوزان تتذكر انها رأت الشيخ يرتدي دشداشة رصاصية ويضع على رأسه كوفية بيضاء، ورغم أن المسافة التي قطعها الإثنان كانت بالكاد تنتهي بخطوات بسيطة، لكن سوزان لم تكن تشك للحظة، انها رأت جثة تمشي، كفنا يمشي ويدخل إلى غرفة الضيوف.

ربت صبر بيده على ظهر الشيخ وتأخر عنه خطوة قبل أن يدخلا الى الغرفة. وحال علمها بضيف قادم، هربت فضيلة بسرعة، ممسكة بظهرها باتجاه الممروهي تزيح جديلتيها الحمراوين وتحكم ربط شيلتها التي عثرت عليها على دكة السلم.

لم تكن في غرفة الضيوف قنفات، وهو قرار اتخذته فضيلة منذ سنتين بناءا على طلب من أبيها الذي زارها ذات يوم في الحلم وطلب منها ذلك. قال لها إن روحه تأتي كل ليلة خميس، وتشعر بالتعب عند زيارته لبيتها. وحين سألته فضيلة عن السبب الذي يجعل روحه متعبة، أجابها بأن روحه تفضل الجلوس على السجاد والإتكاء على مخدة عالية من القطن على أن لايستعمل المخدة أحد من الأحياء. لذلك جلس الشيخ مهدي على سجادة حمراء مخططة بلون اسود، متكأ على المخدة التي حجزها ابو فضيلة لروحه. وعندما رأى صبر ذلك، ضحك وغيّر القناة من mbc دراما الى أحد قنوات القران الكريم.

وهما يجلسان متقابلين، تذكر صبر مشهد المرأة العارية التي دخلت عليهما فأحس بوحشة ثقيلة، وتذكر مشيه في العتمة وحيدا، وسرت إلى جسده قشعريره جعلته يتخيل أنها يمكن أن تدخل عليهما الآن في أية لحظة. ودون أن يقصد، وجد نفسه يقرب يديه من صدره، كالذي يتهيأ لصد هجوم مباغت.

كرر الشيخ مهدي اعتذاره عن المجيء في هذا الوقت المتأخر،

فعرف صبر أن ماسيقال بعد ذلك من كلام، هو عن تلك المرأة العارية وبدا متلهفا لمعرفة أسرار هذه الحكاية الغامضة.

بالفعل ودون أية مقدمات، وزع الشيخ نظرات حائرة بين آثار مسامير على الحائط ونظرة أخرى إلى مزهرية قريبة فيها أزهار إصطناعية.

تحدث الشيخ بصوت هاديء:

ـ إن تلك المرأة التي رأيتها عارية هي زوجتي. لابد انك سمعت الشائعة التي أطلقها الناس على أني قتلتها وقطّعتها بالساطور، ثم جئت لأسكن هنا، هاربا من مدينة الديوانية. أنا أصلا لست من الديوانية. ولدتُ في بغداد وعشت فيها ولا أزال.

عندما سمع صبر ذلك، شعر بالخجل وأحس بوخزة ضمير، كما لو أنه هو الذي أطلق تلك الشائعة.

تابع الشيخ:

ـ مرضت زوجتي منذ فترة طويلة مرضا احتار فيه الأطباء النفسيون ورجال الدين وقارئوا الكف والكشّافون والسحرة. ذات ليلة شديدة البرودة فزّت من نومها مرعوبة. قالت لي إن ابنتنا سحر في خطر شديد، وان علينا إنقاذها فورا، وطلبت مني أن نذهب إلى بيتها الآن، فهي ليست في البيت، عالقة في مكان ما مجهول، وأطفالها لوحدهم يبكون.

ـ وماالمشكلة في هذا؟؟؟ قاطعه (صبر).

تأمل الشيخ وجه (صبر) مبتسما:

ـ إن كل المشكلة هي هنا. فلم يكن لدينا أصلا بنت إسمها سحر. نحن لم ننجب سوى ولدين علي ومصطفى. استشهد الصغير(مصطفى) في تفجير الكرادة ليلة العيد. أما (علي) فهو موظف في شركة اتصالات في منطقة المنصور.

ـ تصورتُ في البداية انه مجرد كابوس. وضعتُ يدي على رأسها وقرأت آية الكرسي، ثم غسلت وجهها بالماء، لكنها بقيت مُصرة على أن لدينا بنت اسمها سحر وانها في خطر. وبقيت تبكي حتى الفجر.

ـ صباح اليوم التالي بحثتُ عنها في كل مكان فلم أجدها. درت كالمجنون في الشوارع وقصدتُ المستشفيات ومراكز الشرطة، وتركتُ أوصافها عند أصحاب المحلات والباعة الجوالين، وناديتُ عليها عبرمكبّرات الجوامع، دون جدوى. ليس عندك فكرة عن حالتي وقتها، وكم كان الموقف محرجا لي كرجل دين، لدي مكانة إجتماعية بين الناس ثم تختفي زوجتي فجأة.

بعد اليوم الثالث عادت في المساء، حزينة، منكسرة، صامتة. لا أعرف حتى هذه اللحظة أين كانت. لم ترد عليَّ بكلمة واحدة. جربتُ الإستعانة بالإقرباء والأهل والأصدقاء بلا جدوى. جربت الطب النفسي والروحاني وسافرت بها إلى الهند فتحيروا بحالتها

وعجزوا. مع الأيام ساءت حالتها. قررت أن تبقى عارية وتساقط شعرها بغزارة وكانت تستيقظ فزِعة كل ليلة، ثم تبكي حتى الفجر وتنام. تأتيها أحيانا هذه النوبات الفجائية التي شاهدتها بنفسك، فاضطررتُ إلى حبسها في الغرفة.

وهو يقول الكلمات الأخيرة، تعثر صوت الشيخ مهدي بعبرة خنقته. حاول حبسها أول مرة، ثم توقف عن الكلام وحاول مرة ثانية، وفي الثالثة انفجرت دموعه دفعة واحدة. فكر صبر أن يُهدأ من فورته ببضع كلمات عن الأمل، لكنه أدرك أن الشيخ مهدي كان يُطلق عبر بكاءه صراخا قديما، لم يعد قادرا على كتمانه.

بعد دقائق قام الشيخ مهدي من مكانه. فتح جواله وناوله لصبر. حدّثه انه يتلقى تهديدات مستمرة بالقتل من جهات مجهولة. قال إنهم يريدون منه ترك المسجد ومغادرة الشارع فورا.

سأله صبر:

ـ منو ذوله؟؟؟؟

أراد أن يتكلم الشيخ مهدي إلّا انه سكت لسبب لم يعرفه صبر. غادرالشيخ وقد واصل سعالا خنقه، ثم مسح دموعه بمنديل أبيض أخرجه من جيب دشداشته. أوصله صبر إلى الباب ودعاه ألّا يستسلم، وذكّره أن كثيرين ينظرون إليه كمثل أعلى. قال له ذلك بصوت خفيض مرتبك، لأنها المرة الأولى في حياته التي يُسدي فيها نصيحة لرجل دين.

أما سوزان فقد بقيت طوال الوقت تنظر من النافذة، تترقب اللحظة التي يخرج فيها الشيخ مهدي مغادرا. أرادتْ أن تتأكد من الصورة التي رأته عليها عند دخوله. لم يتغير شيء، فسوزان مازالت تراه جثة مكفنة تمشي. عندئذٍ أدركت أنها تلقت من السماء إشارة خفية، وأن نبؤة اخرى جديدة على وشك الحدوث.

(3)

ذلك المساء، انشغلت سوزان بنبؤتها الجديدة. فتحتْ دفتر ملاحضاتها وكتبت مارأته بالتفصيل، ويبدو أنها تذكرت الآن، انتظارها لوصول رسالة على الماسنجرمن ذلك المجهول، الذي سألها عن دليل يؤكد صحة ماتدعيه في منشورها. بدت أكثر قوة وهي تشعر أن الاسرار تحيطها من كل مكان. تناولتْ جوالها وفتحت الماسنجرعلى صفحة المحادثة بينهما، وتخيلت انها ستجد رسالة طويلة، وتهيأت لرد مناسب مهما كان شكل الرسالة التي يتركها الرجل الغامض.

فتحتْ صفحة الماسنجر، وبقيت تحدق بنظرات بدت انها خائبة. فلم يكن هذا ماكانت تتوقعه في الجواب الذي وصلها. لقد اختار المرسل كلمات قليلة تحمل سؤالا جديدا تحت سؤالها الذي أرسلته له.

سوزان: الدليل على ماذا؟؟؟

حارس النبؤات: هههههههه الدليل على كونك تعرفين المستقبل. اثبتِ لي ذلك؟

أحست سوزان انه يستفزها. فلم تجد مبررا أن يسبق كلامه بضحكة طويلة. كتبت له على الفورعن الأحداث التي تنبأت بحصولها. وهما حادثتي الدكتور أمجد وانفجار ساحة الطيران. لم تتطرق إلى تفاصيل تلك الأحداث، اكتفت فقط بذكرهما إجمالا. ثم أضافت إليهما الحال الذي شاهدت الشيخ مهدي عليه. قبل أن تضغط على خانة الإرسال، تأملت قليلا وعادت لتمسح الجزء الذي يتعلق بالشيخ مهدي، وأرسلت الجواب.

ـ ليش متوترة؟؟؟

ـ مو متوترة. انتَ منو؟

ـ مو مهم تعرفين.

ـ ليش تكتبلي، انت تعرفني؟

ـ طبعا أعرفج.

هكذا بدأت سوزان حديثها مع ذلك الرجل الغامض، ولم تنتبه إلى الوقت الطويل الذي استغرقه هذا الحوار إلّا عندما ظهرت شاشة جوالها بلون اسود. عند ذلك عرفت أن شحن البطارية قد نفد، وان حديثهما قد استغرق أربع ساعات تقريبا.

خلال هذا الوقت، بقي اهتمام سوزان منصبّا على اكتشاف الرجل. هل كانت مصادفة أن يختار هذا الاسم، لماذا يكتب لها؟مالذي يخفيه؟وأسئلة أخرى كثيرة. وفيما قامت بعشرات المحاولات للوصول إلى ذلك، إلّا أنه كان يزداد غموضا، وبدا

لها انه أصعب مماتصورتْ. بل فوجئت سوزان عندما راجعت المحادثة بينهما في اليوم التالي، انها هي من باحتْ بكل إسرارها له. سيطر عليها خوف غامض، وأحست كما لو كانت قد خضعت لمايشبه تنويما مغناطيسيا على يد خبير متمرس. لقد اكتشفت أنها أجابت عن كل الاسئلة التي وجهها لها، دون أن يجيب هو عن أيِّ سؤال يخصه.

عرفتْ فقط انه مختص بعلم التخاطر وان بإمكانه معرفة الشخص من مجرد الدردشة معه كتابة. لم تسأله سوزان كيف يمكن له معرفة ذلك. أرادت ألّاتبدو منبهرة به. غير أنها جربت أن تسأله أسئلة كثيرة أخرى، فلم يجبْ عن أيِّ شيء. تركها تكتب وغادر المحادثة.

طوال النهار حاولت سوزان أن تعتبرحديثها مع الرجل الغامض شيئا عابرا لايستحق، وتظاهرت بأنها غير مبالية بكل ماقاله لها. خرجت إلى الحديقة وجلست إلى أمها، فتحدثتا في أمور عادية. وصادف أن (صبر) لم يخرج بالتاكسي. إنظم إليهما لكنه بقي صامتا. عندها طلبت فضيلة من صبر أن يوصلها إلى فريال، لأنها لم تعد تحتمل ألم ظهرها، وجددت شكواها بأنها ستصبح مشلولة ثم تموت في شهر رمضان.

أشعل صبر سيجارة. سألها عن علاقة ألم الظهر بفريال. قالت فضيلة بأنها لن تُشفى حتى تسحق على ظهرها، امرأة ولدت توأما. وحيث ان زوج فريال قد طردها إلى بيت أهلها في منطقة السيدية،

فإن على صبر أن يوصلها إلى هناك. وعندما رفض صبر طلبها، هددت بأنها سترمي كل الأدوية في حاوية الزبالة ثم تهجر البيت وتسكن في المقبرة.

إقترحت سوزان لإنهاء المشكلة أن ترافق أمها إلى بيت أهل فريال. رحب صبرعلى الفور بالفكرة بينما سكتت فضيلة على مضض، وجرى الإتفاق أن يذهبا عصرا فتحسست فضيلة أعلى ظهرها. عندئذ شعرت بتحسن كبير لكنها لم تخبرهما بذلك.

تفرّق صبر وفضيلة، وبقيت سوزان جالسة في الحديقة. أسندت رأسها إلى الكرسي واستغرقت بمتابعة أوراق الاشجار التي كانت تحركها ريح خفيفة. أعجبها المنظر فوضعت الهيدفون في أذنيها وفتحت جوالها على مقطوعة موسيقية للعازف التركي (حسنو) لكن وعلى غير عادتها عندما تستمع الى الموسيقى، لم تكن مرتاحة هذه المرة واضطرت إلى نزع الهيدفون ثم أعادته ثانية. فعلت ذلك مرات عديدة. كانت سوزان تريد أن تُشغل نفسها بأيِّ شيء عن التفكير بالرجل الغامض الذي تحدثت معه عبر الماسنجر، فقد حاولت طوال الوقت الماضي ان تطرده من مخيلتها.

جربتْ حمّاما ساخنا، تصفحت نسخة قديمة من مجلة زهرة الخليج، وسرحت شعرها ثلاث مرات. غير أن التفكير به لم يغبْ عنها لحظة واحدة، كأنه دس في رأسها قصاصات ورقية، ثم أمر ريحاً عاتية أن تنشرها حتى اخر نقطة في أعماقها.

حين فتحت جوالها على صفحة المحادثة القديمة بينهما، كانت سوزان قد استنفدت كل محاولاتها للخلاص من فكرة الإتصال به مجددا. كتبت له إنها نسيت إخباره بكل شيء يتعلق بقدرتها على معرفة المستقبل، فمازال لديها الكثير مما لم تذكره في المحادثة السابقة. بعد ذلك أعادت طرح أسئلة مكررة لم يجب عنها سابقا. وعندما لم يكتب لها جوابا، كتبت له إنه ليس من الذوق أن يترك الكلام معها بالأمس دون أن يستأذن. وبقيت طوال الطريق إلى بيت أهل (فريال)تراقب الماسنجر بانتظار وصول جواب من الرجل الغامض.

وإذ استقلت وأمها سيارة أجرة إلى منطقة السيدية، كانت الساعة قرابة السادسة عصرا حين وصلتا إلى بيت اهل فريال. لم يستغرقا وقتا طويلا لإنجاز المهمة، وعادا بنفس السيارة التي جاءت بهما بعد أن اشترطت فضيلة على السائق أن ينتظرهما بأجرة مضاعفة.

قالت فضيلة إن كل آلامها قد زالت بمجرد أن سحقت على ظهرها فريال، ورمت على الفور كل الأدوية من نافذة السيارة، ثم أنزلت زجاج النافذة أكثر، رافعة بصرها نحو السماء وهي تدعو لفريال أن يغير الله قلب زوجها ولايجلدها بالكيبل مرة أخرى. أما سوزان فكانت قلقة أكثر من أيِّ وقت مضى فقد تلقت أخيرا، جوابا من الرجل المجهول. كانت رسالة مطولة يبدو أنه كتبها بهدوء. ظهر ذلك من مراعاة المسافات بين الكلمات والفوارز، ووضع النقاط في مكانها الصحيح. كما أنها وصلت خالية من اي خطأ لغوي.

مثل كل مرة تجاوز أسئلتها، وكتب إنه يعرف أنها لم تخبره عن كل شيء، ويعرف أنها قاومت كثيرا فكرة الكتابة له، واستسلمت في النهاية. قال لها إنه الوحيد في العالم القادرعلى أن يأخذ بيدها في طريق الأسرار والإشارات الخفية، وأن أمامهما مشوارطويل، لابد أن يكملاه معا. قال: من الآن فصاعدا سيكون صارما في تعامله معها، فعليها أن تقبل ذلك وطلب منها أن تدعوه بالأستاذ.

ليس هذا ماجعل سوزان قلقة، بل ماختم به رسالته هو الذي جعلها كذلك. لقد طلب الرجل المجهول منها أن تقابله في مكان يحدده هو، وفي حال رفضت فإنها لن تتلقى منه كلمة بعد الآن. لم يشرح لها السبب وراء طلبه اللقاء بها. أرسل لها ملصقا ضاحكا، وكتب انه متأكد أنها ستأتي.

عاشت سوزان مشاعر متناقضة وهي تقرأ رسالة الرجل الغامض. فلم يسبق لأحد أن تحدث معها بهذه الطريقة. من يكون ليبدو متأكدا أنها لن ترفض طلبه؟ وكيف تسمح اصلا، لشخص لاتعرف عنه شيئا أن يتوغل في حياتها إلى هذا الحد. غرقت سوزان في دوامة من الأسئلة الحائرة. فهي ورغم إعتقادها أنها ليست بحاجة إلى أن تتعلم شيئا إضافيا، لكنها تحب تلك الفصيلة النادرة من الرجال الذين يشعلون بكلمة واحدة حرائق غير متوقعة، أولئك الذين تشعر المرأة معهم بأنها تسكن أسطورة قديمة، ويمكن أن تواجه في أية لحظة، موتاً مفاجئا أو حياة أبدية.

في تلك اللحظة أدركت سوزان أن قوة أزلية تقف إلى جانبها، تباركها، تحميها من شرور مجهولة. لم تصغي لإصوات مبهمة حاولت أن ترجعها عن إجابة الطلب، كما لم تستبعد فكرة شيء خفي يشبه السحر يدفعها إلى هذا الإنقياد المفاجيء نحو ذلك الرجل الغامض الذي ينتظر منها الموافقة على اللقاء بينهما. قضمت تفاحة حمراء كانت في يدها وكتبت له إنها موافقة، وطلبتْ أن يحدد المكان والوقت.

بعد برهة قليلة جاءها رد مقتضب:

ـ اوك، قابليني في مطعم (أجواء بغداد) بالجادرية، عندالساعة الخامسة عصرا. لاتسألي كيف سنعرف بعضنا، ستعرفيني فور أن تريني، شكرا.

تسائلت وهي تقرأ الجواب عن تلك الجمل القصيرة التي يستخدمها دوما، عن تلك الكلمات التي تشبه الأقفال. إنه يضعها بعناية، غالقا كل باب يؤدي إلى حوار طويل معها. قالت في سرها، إنها بحاجة إلى صمت طويل، إلى اسلحة غير تقليدية تشبه أسلحته. لكنه في كل مرة يبعثر صمتها، يعيد كتابتها على ألواح غريبة، يستفز أربعينها ويغادر.

الفصل التاسع

(1)

عصر ذلك اليوم، كانت سوزان جاهزة للقاء الرجل الغامض. في البداية ترددت قليلا في اختيارالملابس المناسبة، أخرجت من خزانة الملابس جينزًا سمائيا ومعطفا احمر طويلا. لكن فكرةً خطرتْ لها جعلتها تغير رأيها وتعيد الملابس إلى الخزانة. بدا لسوزان أن مقابلة شخص لأول مرة، محترف بعلم التخاطروقراءة الأفكار لابد أنه سيتهم بأدق التفاصيل، وسينتبه بالتأكيد إلى الألوان وتناسقها، وسيبني عليها أفكارا وتصورات كثيرة. ستحتاج إذنْ أن تبدو أمامه بمظهر يعطي انطباعا أنها إمرأة عميقة وجادة والأهم انها واثقة بنفسها.

قررتْ أن ترتدي بدلة رسمية نسائية(كوستم) بلون اسود قاتم، ثم أخرجت قميصين اختارت منهما البنفسجي الفاتح، لأنها قرأت قديما انه يرمزإلى أمور روحانية وخيالية. وكان لابد من حذاء بكعب متوسط، ليضفي عليها تميزا وانطباعا بأنها دقيقة. أختيار الشال كان

الأسهل، فلابد أن يطابق لون القميص البنفسجي، وحرصت أن تضع أحمر شفاهٍ زهري اللون، خففته بمنديل فيما بعد.

في الحديقة وقبل أن تنهال فضيلة بسيل لاينتهي من الأسئلة، بادرت سوزان إلى إخبارها أنها ستشتري بعض الملابس من (ماكس مول) في منطقة العرصات، وأن عليها ألّا تقلق، فربما تتأخر حتى الساعة الثامنة مساءا. طبعتْ قُبلة خفيفة على خد أمها وانهتْ الحوار:

ـ بابا يعرف دزيتله مسج.

بين كشك صغير وعربة لبيع الفاكهة، وقفت سوزان على الشارع العام وانتظرت حتى تمر ثلاث سيارات أجرة، أوقفت الرابعة وكانت من نوع (هونداي النترا) يقودها رجل أربعيني أصلع يشبه مدراء المدارس الابتدائية. شعرت سوزان بشيء من عدم الإرتياح لملامح السائق لكنها تجاوزت ذلك وراحت تتأكد من صلاحية باقة الانترنت على جوالها، فقد كان الماسنجر وسيلة الإتصال الوحيدة بالرجل الغامض. لم تجرؤ سوزان طيلة فترة تعارفهماعلى طلب رقم الجوال الشخصي له وانتظرت أن يبادر هو إلى ذلك، لكنه لم يفعل.

قطعتْ السيارة شوارع مزدحمة ونقاط تفتيش كثيرة وجسرًا يخضع لإعمال صيانة وسارت قريبة من محال تجارية وفنادق فخمة وتوقفت مرتين توقفا فجائيا. لم تشعرْ سوزان بكل ماصادفها

أثناء الطريق، كانت تسلك في مخيلتها طريقا آخر، واستدعتْ صورًا كثيرة لِما سيكون عليه شكل الرجل الغامض، لكن صورة الرجل الخمسيني ذو اللحية البيضاء المشذبة بعناية والشعر الأشيب الطويل الذي يشبه هيئة الرسامين الأسبان، بقيت تظهروتغيب أمامها حتى استقرت أخيرا واختفت تدريجيا كل الصور الأخرى من مخيلتها. عندها شعرت سوزان أنها ستواجه رجلا حكيما، يشبه قدرا حتميا أوسفرًا طويلا بلا نهاية.

بقي على الموعد أقل من عشرين دقيقة، وقتها كانت السيارة قد وصلت إلى ساحة كهرمانة متجهةً عن طريق شارع (الكرداة خارج) إلى الجادرية. عاود سوزان الشعور بعدم الإرتياح للسائق الذي أخذ يقود السيارة بسرعة أكثر قليلا.

عند اقتراب السيارة من (فندق كورال) علمتْ سوزان انها صارت قريبة جدا من مكان اللقاء. كتبت له على الماسنجر أنها على وشك الوصول، لكنها وهي تقرأ جوابه، تغيرت ملامحها. صار وجهها اصفرا وبلعت ريقها اكثر من مرة فيما راحت عيناها تحدقان عبر المرآة بوجه السائق ذو الملامح الصارمة. أخبرها الرجل الغامض انه إرتأى تغيير مكان اللقاء وأن عليهما أن يلتقيا في بيته بدلا من مطعم (أجواء بغداد) كما اتفقتْ معه سابقا.

كان بوسعها أن ترفض وتطلب إلى السائق أن يعود بها الى البيت، لو أن الأمر إقتصرعلى مجرد تغيير مكان اللقاء، لكنه أخبرها في

رسالة مقتضبة شيئا غريبا لايُصدقْ. قال لها إن السائق التي تستقل سيارته الآن سيتكفل بإيصالها إلى بيته. عندها بادرت إلى سؤاله على الفور بأنها لاتعرف بيته أصلا، فكيف يعرف سائق التكسي ذلك، فجاءها الرد صادما:

ـ السايق الي انتي وياه، موظف عندي.

ـ شنو موظف عندك!!! أني استأجرته من الشارع.

أخذ قلبها يضرب بقوة وهي تتلقى مفاجأة من العيار الثقيل هذه المرة. قال في رسالة جديدة:

ـ حتى سيارات الأجرة الثلاث التي مرت بكِ في الشارع عندما حضرتِ الى الموعد، كانت لموظفين عندي، أنا من أرسلتهم جميعا.

ـ عليكِ أن تبقي هادئة. سنتحدث لإقل من عشرين دقيقة ثم يتكفل نفس السائق بإيصالك إلى باب بيتك.

أصاب عينيها غواش وأحستْ كأن الارض تدور بها عشرات المرات.

وضعتْ يدها على مقبض الباب وفكرت أن تقوم بمحاولة أخيرة قبل أن تفتحه وترمي نفسها في الشارع. طلبت من السائق أن يوقف السيارة لتنزل، فلم يردْ.

في الأثناء تلقى السائق إتصالا، عرفت سوزان من طريقة رده، انه

يتحدث إلى الرجل الغامض. كان الأتصال قصيرا جدا، ما إن انهاه السائق حتى خفف سرعة السيارة وركنها قرب تقاطع جامعة بغداد. سمعت سوزان صوت السائق ذو الملامح الصارمة لأول مرة:

ـ تفضلي انزلي.

حتى مع نزولها من السيارة، بقيت سوزان عاجزة عن السيطرة على جسمها. كان كل شي فيها يرتجف، وتخيلت أن السيارات والمارّة وواجهات المحلات ودورية الشرطة المتوقفة قريبا منها، كلهم موظفون عند الرجل الغامض. تخيلت لحظتها أنه يملك العالم.

(2)

لا أحد من الذين تجمعوا عند باب الشيخ مهدي، كان قادرا على فتح الباب. وقفوا جميعا صامتين. كانوا حشدا غفيرا من رواد المسجد وانضم اليهم أخرون يتقدمهم صبر، وبعض النسوة اللواتي تجمعن أيضا، ولكنهن كُنّ ينظرن من بعيد. ولما طال وقوفهم، اقترح الحاج عيدان الإستعانة بالطفل الذي شوهد عاريا يركض خلف أمه في جنازة الدكتور أمجد. قال إنه لن يثير شيئا في حال عبر السياج وأخبرنا عمّا يرى في الداخل، فلعل مكروها أصاب الشيخ. إنه لم ينقطع عن المسجد ثلاثة أيام إلّا لظرف قاهر.

وافق الطفل على الفور، وصادف أنه كان عارياً هذه المرة ايضا،

لكن أحدا لم يكترث لذلك. وبقيت أمه تراقبه بفخر وهو يصعد السياج مثل قرد وينظر إلى الجميع قبل أن يقفز إلى الداخل ويغيب في الممر المؤدي إلى باب المطبخ.

بقي الجميع واقفين يترقبون، وكان صبر أكثرهم قلقا، ومد بعضهم رأسه من حافّة السياج، منتظرا أن يرجع الطفل بالخبر. لكن انتظارهم طال قليلا قبل أن يسمعوا صرخة مدوية أطلقها الطفل تأتي من الداخل. لطمت أمه خدها واطلقت صرخة هي الأخرى:

ـ يمه راح ابني.

لم يكترث أحدا لصراخها وهرع الأقوياء من الحاضرين إلى عبور السياج. عندما دخلوا كان المنظر لايُحتمل. لقد انتبهوا فور دخولهم من باب المطبخ الذي كان مفتوحا إلى بقع كبيرة من الدم قبل أن يشاهدوا جثة الشيخ مرمية قرب المغسلة. شاهد الجميع بوضوح أنه تلقى عشرات الضربات على ظهره بسكاكين حادة، واستنتج (سيد هاني) صاحب الأسواق، انه لم يفارق الحياة مباشرة، لأن بقعا أخرى من الدم قد شوهدت في أكثر من مكان داخل البيت.

عندئذٍ أطلقت النسوة في وقت واحد صراخا متصلا وتقرفص الرجال واضعين أيديهم على وجوههم وهم يبكون بنحيبٍ عال. ورغم ان صبر كان أكثرهم فجيعة، لكنه بقي يبحث في الغرف عن تلك المرأة، زوجة الشيخ. فتش عنها صبر في كل الغرف وصعد إلى الطابق الثاني ومن هناك فتح باب السطح، لكنه لم يجد لها أثرا.

أما سوزان فلم تكن تشعر بشيء يُذكر، وهي ترى أن نبؤة جديدة لها قد تحققت. كانت تقرأ رسالة غريبة من الرجل الغامض، قال لها إذا لم تحضر إلى بيته فإنها سترى اعتبارا من الغد أشياء لاتخطر على بالها.

(3)

تلك الليلة، حلمت سوزان بقطط ترتدي بدلات رجالية فاخرة وربطات عنق طويلة، تجمعنَّ حولها في مكان يشبه المتحف البغدادي وهن يؤدين رقصات غامضة ويأكلن علب التونا. بعد ذلك أعلن قط سمين بصوت القطط المعتاد أن مراسم الحرق السنوي ستبدأ الآن. لاتدري سوزان كيف فهمت ماقاله القط السمين فهو تحدث بمواء متقطع.

وحين شعرت سوزان بألم مفاجيء يأتي من خارج جسدها، أرادتْ أن تغادر المكان بأية طريقة. تقدمت بضع خطوات إلى الأمام فتعثرت قدماها بشيء، وعندما نظرت إلى الأسفل اكتشفت أن لها ذيلا طويلا بُنيِّ اللون، وان القطط التي تصل إلى المكان تباعا كانت تسحق عليه. فزتْ مرعوبة.

ما إن عادت الى النوم مجددا، حتى بدأ نفس الحلم من حيث انتهى. مازال القط السمين يدعو الجميع إلى الإنصات. قال إن لائحة الإتهام النهائي للهرة الخائنة ستُعلن بعد قليل. عندئذٍ نظرت

جميع القطط إلى سوزان وأحطن بها مجددا وهُنَّ يرمقنها بنظرات غاضبة. فزت مرة أخرى.

قامت من فراشها غارقة بعرق غزير. فتحت شعرها وشدته ثانية، أضاءت كل المصابيح في الغرفة وقررت أن تنام والمصابيح مضاءة. تكرر نفس المشهد واستُكمل الحلم من حيث انتهى. حدث ذلك مرات عديدة إلى درجة أن سوزان كانت تقف أمام المرآة لتتأكد من عدم وجود الذيل البني في مؤخرتها.

قريب الفجر، كانت شبه منهارة. فشلت كل محاولاتها لئن تنام لحظة واحدة دون أن يداهمها الحلم نفسه، وكان صوتُ القط السمين ينفذ إلى أعماقها من كل مكان. وكانت تشعر بالإشمئزاز من صوته، وكأن عجوزا تقيأ أمامها في طشت كبير ثم صّبه على رأسها.

هل بدأ الرجل الغامض ينفذ تهديده؟؟ سألت نفسها ثم فتحت جوالها تتفقد رسائل جديدة ربما تكون قد وصلتها منه. بالفعل، لقد ترك لها رسالة فهمتها جيدا وأدركت على الفور أن في تحدي هذا الرجل متاعب كبيرة، ليس بوسعها تحملها فهو لن يتردد في إظهار المزيد من قوته، فيما ستبدو هي بمزيد من ضعفها. كانت الرسالة:

ـ على المرء أن يحترم المحافل الحاشدة، حتى لو حضر بدعوة من القطط أو وجد في مؤخرته ذيلا.

ـ متى تريدني أن أحضر؟؟

ـ غدا عند الساعة الرابعة عصرا، إنتظري في نفس المكان، سأرسل لك نفس السيارة والسائق، سيأتيان بكِ إلى هنا.

(4)

كانت سوزان قد انتظرت عشر دقائق، حين توقفت سيارة الأجرة (الالنترا) في المكان الذي تم الأتفاق عليه مع الرجل الغامض. وحيث بدا الشارع خاليا باستثناء بعض المارة الغرباء الذين لايعرفونها، شعرت سوزان بضيق شديد فقد انتبهت صدفة إلى قط أبيض يقفز بين جدران بيوت بعيدة، هاربا من طفلين كانا يلاحقانه بالحجاره. تذكرتْ القط السمين الذي رأته في الحلم يتلو لائحة اتهام الهرة الخائنة وتمنت لو أن ماتراه الآن يكون إشارة سماوية لخلاص قريب.

بإبتسامة باردة لم تغيركثيرا من ملامحه الصارمة، دعاها السائق أن تصعد. وقبل أن تخرج السيارة من حدود مدينتها طلبت منه أن يسلك طريقا آخر غير الطريق الذي سلكاه في المرة السابقة. رد السائق فورا:

ـ تأمرين ست.

ـ هو وين البيت؟؟؟ (سألته سوزان)

ـ بالجادرية ست.

ـ انتم منو بالضبط؟؟؟

ـ اني سايق ست.

ـ مو انت، الي تشتغل عنده منو؟؟؟؟

ـ ماعرف ست.

ـ يعني شنو متعرف؟؟؟ (ردت سوزان بنبرة غاضبة)

بقي السائق صامتا، حتى عبرت السيارة تقاطع (جامعة بغداد) ثم انعطفت باتجاه شارع صغير محاذٍ للطريق الوحيد الذي يؤدي إلى (نادي الفروسية). هناك اجتازت سيطرة للشرطة وتوقفت بعد مسافة قصيرة بالقرب من كرفان حراسة صغير يتوسط بيتين كبيرين. إعتقدت سوزان للوهلة الأولى أن الرجل الغامض يسكن في أحدهما. لكنها فوجئت أن السائق يطلب منها أن تنزل، مشيرا إلى بيت صغير يقابل البيتين الكبيرين. قال لها بنبرة هادئة دون أن يلتفت:

ـ تفضلي ست، ذاك البيت.

إنتظرت سوزان قليلا قبل أن تطرق الباب، وتأملت البيوت المجاورة بدهشة غريبة. لم يكن سبب دهشتها أن البيت الذي تقف أمامه هو الوحيد المشيد على الطراز القديم وسط بيوت تشبه قصورا تاريخية بمساحات شاسعة وحدائق مليئة بأنواع نادرة من الزهور وطراز معماري فاخر. كان سبب الدهشة مختلفا تماما. لقد تَملْكها إحساس غامض انها تعرف هذا المكان، وأنها قد جاءت إلى هنا يوما ما.

وحيث ان المكان غارق بالصمت، والزهور في الحدائق القريبة تبعث نوعا خفيا من الطمأنينة، رأت سوزان أن تستعين بموهبتها، أرادت أن تعرف شيئا، أي شيء، عمّا سيحصل لها عندما تدخل. وقبل ان تُكمل الإنصات إلى قلبها الذي بدأ للتو حديثا هامسا، جفلت من صوت يناديها باسمها ويدعوها للدخول:

ـ تفضلي ست سوزان، الأستاذ بانتظارك.

كان الصوت لسيدة عجوز بدينة، هيئتها تشبه موظفات المصارف، القريبات من سن التقاعد. وكان شعرها قصيرا، أشيبا بالكامل، وعيونها منتفخة كأنها لم تنم منذ سنة. وكان يصدر عن فمها أصوات طقطقة مقززة، وكانت هذه العجوز ترتدي بلوزة صوفية صفراء ضيقة وتنورة قصيرة الى مافوق الركبة، وكان صدرها كبيرا متهدلا حتى بطنها. ولاحظت سوزان وهما يدخلان سويا، أن السيدة العجوز، رغم انها وضعت عطرا قويا نفاثا، إلّا أن رائحة جسمها الكريهة كانت طاغية عليه. ويبقى أهم انطباع سجلته سوزان على تلك السيدة العجوز، هو أن ملامحها تبعث الرهبة في النفس. مثل مشاهدة غروب ثقيل، على أسوار مقبرة.

قادت السيدة العجوز سوزان عبر ممر ضيق. وكلما اقتربتا من غرفة، تتصور سوزان أن الرجل الغامض ينتظرها هنا، لكن السيدة العجوز كانت تلتفت وتربت على كتفها وتدفعها إلى مواصلة السير داخل الممر. وهكذا بقيا يمشيان حتى عبرتا ثلاث غرف مقفلة.

خلال سيرها بصحبة السيدة العجوز، لم يكن يراود سوزان سوى ذلك الإحساس المبهم الذي صار الآن أكثر وضوحا، وهو أنها قد جاءت إلى هذا المكان من قبل وانها ربما تعرف تفاصيل كثيرة عن طلاء الجدران والأرجوحة القديمة في الحديقة وصوت بلبل كان يأتي من مكان ما. إضافة إلى رائحة غريبة كانت تملأ المكان، تشبه رائحة أحد تعرفه. تمنت سوزان في تلك اللحظة أمنية غريبة. تمنت أن تتربع على الارض لتبكي.

كانت الغرفة التي توقفت أمامها العجوز هي آخر الغرف في الطابق الارضي. وهي الوحيدة التي لم تكن مقفلة وإنما كان بابها مواربا قليلا. قالت السيدة العجوز بعد أن دعت سوزان الى الجلوس:

ـ لحظات والأستاذ يجي.

لِمن يراها لإول مرة، لم تكن الغرفة بحاجة إلى أن تتفحصها كثيرا. كانت بسيطة وليس فيها تفاصيل سوى تخم قنفات ذهبي اللون ومدفأة نفطية فاخرة وضعت في وسطها، وكان هناك طاولة متوسطة الحجم، عليها فقط علبة سكائر نوع (مارلبورو) ومطفأة سكائرعلى شكل رأس أفعى. وكانت الإضاءة خافتة، غير أن العجوز أضاءت قبل أن تخرج، كل المصابيح وابتسمت، فتذكرت سوزان رائحتها الكريهه ولم تُبدِ لابتسامتها اهتماما يُذكر.

مضتْ أكثر من خمس دقائق وسوزان لوحدها. لم يأتي لها أحد.

حاولت مستغلة صمت المكان أن تُجرب مجددا الإستعانة بموهبتها وتتنبأ بما سيحدث، لكنها فشلت مرة أخرى وتذكرت مقولتها القديمة بأنَّ التنبؤات مثل الولادة والموت تخضع في حدوثها إلى مواعيد صارمة. فكرت أن تقوم وتنادي على المرأة العجوز. وقبل أن تفعل ذلك، حصلت مفاجأة غير متوقعة.

ـ سوزان. قال الرجل الذي دخل الغرفة توا.

(5)

مصدومة، تُحدق بالرجل الذي وجدت نفسها تقف بمواجهته. بقيت عينا سوزان تتابعانه وهو يجتازها ليجلس على الكرسي المقابل. لقد جاءت توقعاتها فيما يخص شكله وهيئته، خاطئة تماما. فلم يكن خمسينيا ذو شعر طويل أشيب، وليس لملامحه أية علاقة بهيئة الرسامين الإسبان. قالت له سوزان بعد ان بلعتْ ريقها

ـ أنت!!!!..... لالالالا مستحيل.

لم تُكمل كلامها حتى بادر:

ـ نعم آني.

ـ لا مو انت. أكيد آني احلم.

ـ احنا اهنا ممنوع علينا الحلم. صدكيني سوزان آني حقيقة.

حاولت أن تقول شيئا لكنها لم تجد صوتها. اقترب الرجل منها

محاولا إحتضانها، فتراجعت خطوات إلى الوراء. اغرورقت عينا الرجل بالدموع، قال بصوت مختنق حزين:

ـ سوزان شبيج أني احمد. صوتي، وجهي، عيوني، ريحتي. آني أحمد.

ـ لا انت مو أحمد، أحمد مات. أحمد ميت من سنوات طويلة.

ـ صحيح اني ميت بس انتي.....

لم تسمع سوزان كلماته الأخيرة. ابتعدت مجتازة الممر ذو الأضاءة الخافتة، وسارت بخطى ثقيلة عبر الغرف المقفلة، وتمنت لو أنها تتوقف عند هذه الأبواب لتتذكر شيئا. كانت خائفة ولم تدري كم مر من الوقت وهي هنا. لكنها متأكدة أن الظلام قد حل في الخارج، تخيلت والديها وهما يبحثان عنها في كل مكان.

وما إن وضعت أول قدم لها في الشارع حتى تسمّرت مذهولة في مكانها. شاهدتْ سوزان ما لم تجد له تفسيرا، وكادت تسقط على الأرض من هول الصدمة. لم يكن هناك شارع ولا بيوت واختفى كرفان الحراسة الصغير وتبدل كل شيء. كان المكان مختلفا تماما.

وجدتْ سوزان نفسها تقف بين أودية سحيقة تحت سماء حمراء قاتمة، تُحلق فيها أسراب من طيور غريبة بمناقير تشبه البشر. وكانت رياح باردة تواصل هبوبا قاسيا وتحمل معها ترابا نديا وأصواتا بعيدة تشبه استغاثات المعَذَبين. بقيت صامتة لبرهة من الوقت، ثم فكرت أن ذلك يمكن أن يكون نبؤة جديدة، لكن الوقت كان يمر دون أن

يتغير شيء سوى قطع متناثرة من غيوم كئيبة ضاعفت إحساسها بالوحدة.

جربتْ التأكد من أن كل شيء تراه الآن هو حقيقي. لم تنفض التراب الذي غطى ملابسها، لمستْ أحجارا قريبة كانت إحداها على شكل طفلة حزينة. وحين دققت النظر، وجدت أن تلك الحجارة تشبه وجهها. وانتبهت بعد ذلك إلى أن كل شيء من حولها الآن، هو على صورتها، يشبه وجهها تماما، الحجارة والأودية وأسراب الطيور الغريبة، حتى الأصوات التي تحملها تلك الريح الباردة، كانت تنادي باسمها ثم تتلاشى.

لم تعد سوزان متأكدة من أيِّ شيء يحدث في حياتها. كانت يائسة وقررت ألّاتبذل أية محاولة لإنقاذ نفسها. قالت:لماذا تبدو خيباتي متشابهة إلى هذا الحد؟ لماذا أبدأ أصلا، إذا كنت أواجه نفس النهاية في كل مرة.

تقرفصتْ ثم استغرقت ببكاء طويل. لم يخذلها دمعها، ولم تنتبه أن يدا كانت تربت على كتفها، إلى أن همس صاحب اليد بكلمات لم تميزهن. عندئذ رفعت رأسها. كان رجلا مسناً بلحية بيضاء طويلة وشعر أشيب مُنسدل حتى كتفيه، وكانت عيناه الفاحمتا السواد تُشعان برحمة اسطورية، تشبه أن يبوح المرء بأسراره إلى نبي.

قالت سوزان بصوت مبحوح:

ـ ساعدني، أريد أن أعود إلى أهلي، إنهم يبحثون عني الآن.

بقي الرجل المسن صامتا، مُحدقا في الوادي، يراقب شجرة بعيدة، لم تنتبه سوزان إلى وجودها من قبل. أعادت طلبها:

ـ ساعدني، أريد أن أعود إلى اهلي، لقد تأخر الوقت وأنا لا أعرف الطريق إلى بيتنا.

ـ ليس لك بيت حتى أدلكِ عليه (قال الرجل المسن)

ـ لالا، أنا لا أعرف مالذي حصل لي، أنا من بغداد وبيتي لايبعد مسافة طويلة عن هنا. أرجوك إن أهلي يبحثون عني الآن.

حوّلَ الرجل المسن بصره عن الشجرة البعيدة وتأمل في عينيها، فأبصرَ أنهما تحبسان دمعا قديما متراكما. بدا انه مشفق عليها مما سيخبرها به:

ـ لا أحد يبحث عنكِ، لا أحد يبحث عن ميت.

ـ ميت!!!!!

ـ نعم ميت، أنتِ ميتة منذ سنوات طويلة.

قال ذلك ثم تركها ومشى مبتعدا بأتجاه معاكس للريح التي مازالت تواصل هبوبها ولكن الأصوات التي كانت تأتي معها اختفت. لحقت به وهي تصرخ:

ـ ميتة!!! أنا ميتة!!! لماذا تقول لي ذلك؟؟؟

تحدث معها هذه المرة دون أن يلتفت، قال وهو يواصل سيره:

ـ لأنكِ ميتة. أنتِ ميتة.

ـ هل أكون ميتةً لأنني التقيت بشخص يدّعي أنه أحمد!!! إنه كاذب.

توقف الرجل المسن عن المسير. أدار ظهره للريح ولاحظتْ سوزان أن عينيه قد ضاقتا، وأن حزناً عميقا قد اجتاحهما فجأة، قال لها:

ـ ليس كاذباً. لقد فارقتما الحياة منذ غرقتما معاً في حادث السيارة التي سقطت من الجسر.

أطلقتْ سوزان صرخةً مدوية تلاشت في سماءٍ ساكنة، تراقب حوارهما بحيادٍ كامل:

ـ أنتَ مجنون، كُلكم مجانين.

ردّ الرجل المسن بعد صمت قصير:

ـ لاوجود للمجانين في هذا العالم.

ساد الصمت بينهما مرةً أخرى. بعد برهة قال الرجل المُسن:

ـ صغيرتي، إن الله يسمح للأرواح التي ترفض أن تصدق انها ميتة، بالسفر نحو عوالم مختلفة. يُسمح للروح أن تستكشف مكانها الجديد، أن تألف الظلام والريح الباردة والأصوات. ألأمر يشبه تدريبا على قبول الموت، وقد تاهتْ روحكِ بين تلك العوالم، واطلعتْ على أحداث ستجري في المستقبل وقابلتْ أشخاصاً لايعرفون أنهم سيقومون بالأعمال التي اخبروكِ عنها.

لم ينتظر الرجل المُسن أن ترد سوزان. تركها ثم هبط في وادٍ قريب وغاب إلى الابد. أما هي فقد وقفتْ صامتة تحت مطر غزير هطل فجأة، ويبدو انها تذكرتْ الآن كل شيء.

(تمت)

A L I S A D E K

علي صادق

سوزان

أحياناً، قد تتقدّم " متعة القراءة " بوصفها قيمة فنية بحدّ ذاتها، على جميع قيم عناصر البناء الروائي و تقنيات السرد الحاضرة في الرواية نفسها، على الأخص إذا كان الروائي واعياً مدركاً لأهمية القيمة هذه، عاملاً على توجيه مساره السردي باتجاهها و محافظاً عليها بوصفها المرشد المقوّم لأحداث الرواية كلّها. وهذا ما فعلته بالضبط الكثير من الروايات العالمية الكلاسيكي منها و المعاصر.

في رواية " سوزان " يحرص الروائي " علي صادق " على أن يغدو عمله احتفالاً سردياً بريئاً، رحلة ممتعة يشرك القارئ فيها على ملاحقة مصير ابطاله والتنبؤ بما ستؤول اليه اقدارهم،تلك التي عمل على رسمها بدقة متناهية لتصبح خارج المتوقع والمألوف. ثمة سحر وعوالم خفية واقعية تتحدى المتخيل في مقدار واقعيتها، مثلما ثمة محلية طاغية تدمغ العمل كله مؤكدة لنا تلك المقولة الشهيرة بأن " المحلي جداً عالمي جداً ".

نعم، إن رواية علي صادق "عراقية" بامتياز و هذا هو عنصر التفوق و الجمال الأول فيها.

الناقد

عادل عبد الله

سطور

دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد- شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 ،07700492576

e.mail: bal_alame@yahoo.com

علي صادق

سوزان

رواية